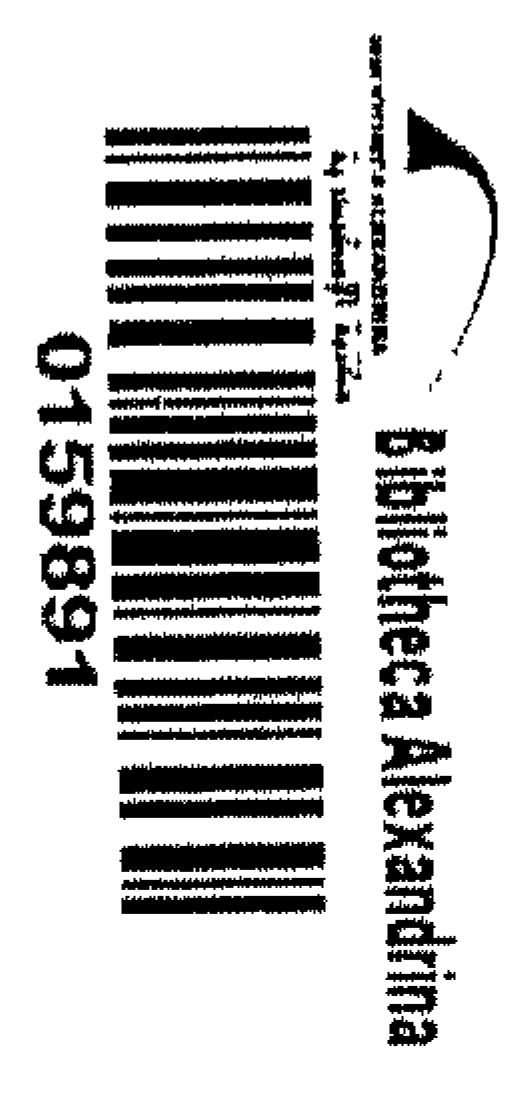
بين آدم وحواء

تأليف

د. زكي مبارك



دار الجيل

بيروت

بين آدم وحواء



تأليف
د. زكي مبارك

دار الجيل
بيروت

طبعة ثانية مزيدة ومنقحة

١٤١١هـ - ١٩٩١م

« يجب أن يكون في الوجود حرام وحلال، لنشعر بالذاتية في قرب هذا واجتذاب ذاك، وإلا صرنا خلائق تواجه الوجود بلا اكتراث، وإذا انعدم الاكتراث فقد انعدمت الأخلاق ».

زكي مبارك

المقـــدمَة

بقلم : كريمة زكي مبارك

أراد زكي مبارك ان يتناول مسائل مثيرة وشائكة وان يسجل افكاره وآراءه، الجزيئة في مختلف شؤون الحياة والفكر والمجتمع فلجأ الى الفن الرمزي، وقد وضح ذلك في عدة اعمال منها هذا الكتاب الذي بين ايدينا حيث اختلق زكي مبارك قصة قال فيها ان هذا الكتاب لمؤرخ مجهول اسمه (شيت بن عربانوس) وأن الكتاب كان بالخط الكوفي وقد اعطاه له الدكتور أحمد زكي باشا شيخ العروبة وان زكي مبارك ترجمه كما هو.

وتحت عنوان : (بين الورق والدوح ـــ رسالة مهداة الى المسيو دي كومنين ـــ للدكتور زكي مبارك) تحت هذا العنوان كتب اديبنا الدكتور زكي مبارك مقاله الأسبوعي في مجلة الرسالة الغراء بتاريخ التاسع عشر من يناير سنة ١٩٤٢.

ويقول الكاتب والمؤرخ الأستاذ انور الجندي ان هذا المقال هو المدخل الى كتاب زكي مبارك الذي بين أيدينا الآن وهو كتاب (بين آدم وحواء) وذلك على صفحة (١١٧) من كتابه (زكي مبارك

دراسة تحليلية لحياته وأدبه) والذي طبعته الدار القومية للطباعة والنشر في سلسلة مذاهب وشخصيات.

وبعدها بسنوات وفي كتاب الهلال (صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك) للأديب الصحفي الشاب الأستاذ محمد محمود رضوان قال المؤلف على صفحة (٧٤) :

بدأ الدكتور زكي مبارك رسالته عن آدم وحواء بمقال بعنوان (بين الورق والدوح) مهد فيه لرسالته.

ونحن وان كنا نختلف مع الكاتبين الأستاذين أنور الجندي ومحمد محمود رضوان ولا نرى علاقة واضحة بين هذا المقال وبين مقالات زكي مبارك بعد ذلك عن آدم وحواء الا أننا رأينا أن ننقل المقال بكامله للقارئ ليقول رأيه، وهل هناك صلة بين مقال الدكتور زكي مبارك (بين الورق والدوح) بكتابه عن آدم وحواء ام لا.

والمقال سيجده القارئ في أول الكتاب اي بعد المقدمة مباشرة.

وسنقدم مقال الدكتور زكي مبارك بكامله حرصاً منا على الحياد التام وعلى اثبات ما قيل حول كتابه (بين آدم وحواء) خاصة وأن الطبعة الأولى للكتاب لم تضم بين صفحاتها هذا المقال..

ويقول الأديب محمد محمود رضوان على صفحة ٨٢ من صفحات كتابه (صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك) يقول عن كتاب (بين آدم وخواء) :

ضمن زكي مبارك في هذا الكتاب الشيق الممتع فنوناً مختلفة من ثقافته الأدبية والفلسفية والدينية، والمحصول الفني لزكي مبارك في هذا السفر النفيس يرجع الى التعمق في الفكرة، ومعالجتها بأسلوب قصصي شيق.

وفي هذا السفر عقدة انسانية هامة وهي تشريح عاطفة آدم نحو حواء أي الصراع المروع بين العقل والعاطفة، وبين نسائم الهدى وزوابع الضلال. فهو في هذا الكتاب من أقطاب الفكر وأرباب البيان لقد أتى في الكتاب بفنون مختلفة من الأعاجيب والفلسفات لأنه قوي الاحساس الى أبعد الحدود، قوي التعبير وهذا شاهد على عظمة الفكر وقوة الروح.

ان زكي مبارك في هذا الكتاب أمشاج من الوجد المقهور والحب الآسر... هو قيثارة صداحة لأحلام القلوب وأهواء الأحاسيس.

ان هذا الكتاب يعد من أجمل وارق ما سجله الدكتور مبارك في الأدب الابداعي.

وبعد، فالكتاب مليء بفنون من الصور الفلسفية والموضوعات المثيرة الشائكة وان كان يغلب عليه عرض المشكلات الوجدانية بصورة غاية في الصراحة والجرأة والوضوح والصدق.

وبعد، هذه كلمات قيلت عن عدة مقالات جمعت لزكي مبارك في كتاب، فهل يعرف القارئ ان لزكي مبارك عشرات المقالات بل آلاف المقالات التي لم تجمع للآن لتكون بين يدي القارئ؛ القارئ الذي أحبه زكي مبارك وقال يخاطبه :

أيها القارئ لو شئت لقلت إنك أعز علي من سائر اصدقائي وأصفيائي لأنك تفهم عني اكثر مما يفهمون في رعاية العهد وحفظ الجميل.

ايها القارئ لم يبق لي بعد الله غير ودادك وعطفك، ودنيا الأدب بدونك سراب في سراب، ولولا الثقة بك ايها القارئ لكسرت قلمي ورجعت الى صحبة الفأس والمحراث في سنتريس، ان كان سهر الليالي من أجلك قد أبقى لي من القوة ما استطيع به الرجوع الى صحبة الفأس

والمحراث... ورحم الله الشباب الذي بددته في صحبة الكتاب والدواة والقلم والقرطاس.

وفي الثالث والعشرين من يناير ١٩٥٢ رحل عنا زكي مبارك... رحل فجأة... رحل قبل حريق القاهرة بساعات معدودات... وأخمدنا الحريق ولكن دخانه غطى على كل حصاد زكي مبارك المنشور في الصحف والمجلات فلم ير النور. وحتى الآن عشرات الكتب لزكي مبارك يجب أن تجمع من بطون الصحف والمجلات وتنشر.

زكي مبارك الذي قال عنه رئيس تحرير جريدة البلاغ الأستاذ محمد عبد القادر حمزة على صفحات جريدة البلاغ في السادس والعشرين من يناير ١٩٥٢ يوم حريق القاهرة[١] :

يعز على البلاغ ان يودع اديبه الأول، وقد كانت صفحاته ميداناً لفحولة هذا الرجل الذي قل أن يدانيه في مصر من كان يعلم علمه بأدب العرب.

ويعز على هذه الصفحة ايضاً الا يتوجها الكلام الذي كانت تسطره يد زكي مبارك في كل اسبوع وان ينقطع هذا المعين الطيب عن ذهن كان عبقرياً في انتاجه بل كان معلماً حتى للعلماء.

كان زكي مبارك كنزاً من كنوز الأدب العربي لا اظن ان مصر سترى له مثيلًا بعد عشرات السنين.

---

(١) هذه الكلمات يجدها القارئ ايضاً على صفحات ديوان (قصائد لها تاريخ) للدكتور زكي مبارك والذي طبع ونشر في دار الشعب بالقاهرة في اكتوبر ١٩٨٧.

كان زكي مبارك هدية القرية المصرية الى الجامعة الأزهرية ثم الى السربون في فرنسا ثم الى الجامعة المصرية، ثم كان خير من ارسلتهم مصر الى العراق، وهناك بدت خلة الوفاء في اسمى معانيها ومداركها اذ كان الفقيد الكريم في هذا القطر قطعة من النبوغ المصري الوقاد ولم يلبث ان جعل له ولبلاده في العراق من نباهة الذكر ومن بعد الصيت ما لا أظن ان العراقيين سينسونه ابداً...

ولقد قلت ان البلاغ فقده، ولكن يعزيه عن هذا الفقد أن صفحاته سجل حافل بآيات الفقيد وبآثار عبقريته ومعاركه الأدبية التي انتصر فيها، وكلها ثروة تعتز بها مصر، بل تعتز بها اللغة العربية كل الاعتزاز ».

والآن... اما آن لهذه الصفحات التي كتبها زكي مبارك وهي ثروة تعتز بها مصر، بل تعتز بها اللغة العربية كل الاعتزاز، اما آن لهذه الصفحات والتي تملأ جرائد ومجلات مصر والعراق والسودان ولبنان وغيرهما اما آن لها ان ترى النور ؟

اما آن لمحبي نثر وشعر زكي مبارك في مصر وفي جميع ارجاء الوطن العربي ان يمدوا يد العون لجمعية زكي مبارك الأدبية لجمع هذا التراث العظيم ؟

اما آن لعشاق ادب زكي مبارك ان يتذكروا زكي مبارك ؟

ولكن، هل شباب اليوم يعرفون من هو زكي مبارك ؟ وكيف كان يعيش زكي مبارك ؟

كتب زكي مبارك رسالة بعث بها الى صديقه الأستاذ رفائيل بطي رئيس تحرير جريدة البلاد البغدادية وذلك بعد صدور الجزء الأول من كتابه (ليلى المريضة في العراق) في شهر شباط سنة ١٩٣٩، وجاء في الرسالة :

في كتابي[1] عيب أسجله بنفسي وهو الهيام العنيف بحب الشرق، والدعوة الى أن يكون وطناً واحداً تلوذ به قلوب الأحرار من الرجال.

ويقول زكي مبارك[2] :حدثني قلبي بأن الشرق لم ينحط من قلة القلوب، وانما انحط من قلة العزائم، وتذكرت أن الأمم العظيمة هي التي يوجد فيها رجال شجعان يقولون كلمة الحق حين تخرس ألسنة الجبناء.

ويقول زكي مبارك[3] : الى اللقاء القريب يوم تصبح الأقطار العربية أمة واحدة متجانسة تجانساً تاماً في العواطف والمقاصد والأغراض.

الى اللقاء القريب يوم ترفع الحواجز. التي خلقتها الأوضاع السياسية فلا يحتاج الرجل الى جواز سفر حين ينتقل من العراق الى مصر أو من مصر الى العراق.

الى اللقاء القريب يوم يصبح الوجود العربي جسماً واحداً اذا تألم منه عضو توجع له سائر الأعضاء.

الى اللقاء القريب يوم تتوحد بيننا المذاهب التعليمية والاجتماعية والاقتصادية، يوم لا تكون الفوارق الجغرافية الا نعمة ندرك بها كيف شاء الله ان ينوع الخيرات والبركات.

وهذا حلم قد لا يتحقق ونحن احياء، ولكن يشرفنا أن نكون من اوائل الهاتفين بهذا الحلم الجميل.

---

(١) من كتاب زكي مبارك في العراق من منشورات المكتبة المصرية، بيروت ــ صيدا، صفحة ٣٠٠ لمؤلفه الكاتب العراقي الأستاذ عبد الرزاق الهلالي.

(٢) من كتاب (ليلى المريضة في العراق) من منشورات المكتبة العصرية، بيروت ــ صيدا، الطبعة الثانية صفحة ٢٧١ لمؤلفه الدكتور زكي مبارك.

(٣) صفحة ٢٥٩ من كتاب الأستاذ عبد الرزاق الهلالي (زكي مبارك في العراق).

ويقول زكي مبارك[1] : ان الشرق العربي والاسلامي يملك أخصب بقاع الأرض، ويسيطر على اعظم البحار، فمتى نعيد سيرة الاسلاف ؟ ومتى يكون للعروبة الاسلامية علم واحد يلقى الرعب في صدور الأعداء ؟ ان ذلك لا يتم الا يوم نتسلح بالأخلاق.

وما هي الأخلاق ؟ انا اعيذ الشرق من اخلاق العبيد، الأخلاق السلبية التي تنحصر في البعد عن آفات الشهوات، وانما اريد اخلاق الفحول، الأخلاق الايجابية التي تفرض عليه ان يحب الحياة ليكافح في سبيل الحياة. والى اللقاء في ساحة المجد المنيع، المجد الذي عرفته جيوش قرطبة والقاهرة وبغداد، يوم كنا أقطاب السياسة والقوة في المشرق والمغرب، ويوم كنا أساتذة الممالك والشعوب.

ويقول ايضاً الدكتور زكي مبارك[2] : كيف أعيش في القاهرة وانا اشتغل سبع عشرة ساعة في كل يوم ؟ كيف أعيش في القاهرة ولي في البيت شاغل، وفي عملي شواغل ؟ كيف أعيش في القاهرة ولي فيها ألوف من الأعداء والمنافسين ؟ كيف أعيش في القاهرة وانا معرض في كل يوم لفتنة المباسم والعيون ؟ كيف اعيش في القاهرة وهي قاهرة ؟

لقد هربت من القاهرة وسكنت بمصر الجديدة في منزل يواجه الصحراء، فهل أراني مع ذلك نجوت من فتنة القاهرة ؟

وكيف انجو وهي تلاحقني عن طريق الاذاعة اللاسلكية وطريق التليفون ؟

كيف انجو من القاهرة وكان سحرها يتعقبني في باريس وفي بغداد ؟ كيف انجو من القاهرة وهي قاهرة ؟

---

(١) صفحة ٣٦٩ من كتاب (ليلى المريضة في العراق).

(٢) نفس المرجع السابق صفحة ٣٢٦.

اردت ان اخصص يوماً من كل اسبوع لمشاهدة ما يجد في مكتبات القاهرة فضاق الوقت. واردت ان اخصص يوماً لمشاهدة ما يجد في ملاهي القاهرة فضاق الوقت. واردت ان اخصص يومـاً لمحـاورة الصحفيين في القاهرة فضاق الوقت. واردت ان اخصص يوماً لمواجهة ضيوف القاهرة فضاق الوقت. واردت ان اخصص يوماً لمسامرة اطفالي فضاق الوقت. واردت ان اخصص يوماً لمجاهدة نفسي فضاق الوقت. فمن انا في القاهرة ومن انا في دنياي » ؟

وأقول هذا هو السؤال الذي سيجيب عليه عشاق ادب زكي مبارك حين يجمعون تراث زكي مبارك... انها، انها امنية فهل تتحقق ؟ ربما فاني ألوذ بقلوب الأحرار من الرجال، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

بين الورق والدوح

[رسالة مهداة إلى المسيو « دي كومنين »]

حدثت قرائي غير مرة أن ذاكرتي فيها انحراف غريب : فهي ضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والأعلام، وقوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعاني، ولها قدرة عجيبة على تمثل الملامح والأصوات والألوان، فمن السهل أن أصف حادثاً رأيته قبل عشرين سنة، مع الإحاطة بما لابسه من دقائق التفاصيل، ولكن من الصعب أن أتذكر رقماً سمعته قبل يومين، إلا أن يتصل بأمر تلتفت إليه الذاكرة بعض الالتفات، ولأجل هذا أقيد ما يهمني من الأرقام في دفتر خاص.

وفي هذه اللحظة أتذكر جيداً كيف شهدت عدوان الخريف على آثار الربيع، ولم أكن شهدت ذلك العدوان قبل أول أيلول قضيته في باريس، وأتذكر أيضاً كيف كانت قدماي تخبّان في أوراق الأشجار وأنا أخترق حديقة « لكسمبور »، وأكاد أتمثل كيف انتشيت حين رأيت ذلك المنظر الجميل، وما هو في الظاهر بجميل، ولكنه أعانني على فهم جوانب من حيوية الأدب الفرنسي، ففيه ألوف من صور العدوان البغيض، عدوان الخريف على آثار الربيع، بلا تهيب ولا استحياء.

وفي يوم عاصف جلست تحت « الدوح » وهو ينظر بحزن إلى

تساقط « الورق »، فوعيت من حواره أحاديث لن أنساها ما حييت. وكيف أنساها وقد زلزلت قلبي، وأطلعتني على بعض ما كنت أجهل من سرائر « الأدواح » و « الأوراق » ؟

سمعت « الدوح » يقول في صراخ مبحوح : « إلى أين يمضي هذا الورق الساقط ؟ وكيف جحد جميلي عليه ؟ حملته وهو ضعيف لا يقدر على التماسك، وأمكنته من شرب الندى وارتشاف أكواب الضياء، وحرمت نفسي عذوبة التمتع بضحوة الشمس في الربيع، ونشوة القيظ في الصيف، ليجد الفرصة لتذوق النعيم، فهل حفظ هذا الصنيع ؟

« لقد أبحته أن يمتص دمي كيف يشاء، ليواجه نور الوجود بحرية الطفل الغافل عن جهاد أبيه، ولكل أب جهاد يجهله الأبناء ولو كانوا من الملهَمين، فهل عرف الورق الساقط أنني حرمت نفسي نعيم الندى والضياء ليتخايل ويستطيل ؟ »

وسكت « الدوح » لحظات، ثم صرخ من جديد :

« والآن يعرف الورق أن الشتاء قادم، وأنني سأحتاج إليه لدفع عوادي البرد والجليد، فهو ينخلع عني، ليتركني بلا غطاء، في قر الشتاء ! ».

ويسمع الورق أنين الدوح فيهتف :

ـــ ما عتبك علي أيها الدوح ؟ ما عتبك علي وقد بذلت في البر بك غاية ما أملك ؟ ألا تذكر أني صبرت على مصاحبتك في السيطرة والاستعلاء شهوراً من الزمان ؟ ألا تعرف أني عققت من أجلك أمنا الأرض ؟ فما ذنبي إذا اشتهيت العودة إلى الأم الرءوم، وهي أيضاً تحتاج إلى من يدفع عنها البرد والجليد ؟

وسمع الدوح هتاف الورق فأجاب :

ـــ الأرض أمي وأمك، ولكني فهمت عنها ما لم تفهم، فقد حدثتني

ألف مرة أنها لا تريد أن يرجع إليها غير الأموات من أبنائها الأعزاء، فإن كنت مت أيها الورق فارجع إلى أمك الأرض !

فزمجر الورق :

ــ أنا مت ؟ أنا ؟ وهل يموت من يرجع إلى حجر أمه الغالية ؟

فيقول الدوح :

ــ نعم، ثم نعم، يموت من يرضى بأن تدوسه الأقدام، ولن يكون لك نصيب غير الدوس، يا جهول !

وهنا قال الورق للدوح :

ــ هل تنسى أني أدفأتك في الصيف ؟

فقال الدوح للورق :

ــ لم أكن أحتاج إلى دفء في أشهر الصيف؛ وإنما أحتاج إلى الدفء في أشهر الشتاء.

فقال الورق للدوح :

ــ لا أستطيع سماع صوتك وأنت مجلل بالسواد.

فقال الدوح للورق :

ــ إنما تجللت بالسواد حداداً عليك. ألا تذكر أنني كنت أحبك حباً هو الغاية في الكرم، لأنه حب القوي للضعيف ؟ ألا تذكر أني كنت أقاوم العواصف والزوابع لأقي خدودك ذلة الالتصاق بالأرض ! ألا تعرف أنني أعاني لفراقك كروباً لا تطاق ؟

قال الورق :

« أتحبني إلى هذا الجد، أيها الدوح ؟ »

فتأوه الدوح ثم أجاب :

« لا أحبك لأنك ورق، فأنت تعرف أني صبرت على تقلب الأوراق

أربعين عاماً أو تزيد، ولن أموت يوم أموت بسبب تقلب الأوراق ــ وإنما أحبك لأنني أنشأتك كما يحب الله هذا الوجود، فأنت بعض ما صنع دمي أيها الورق، ولن تعيش بعد فراقي إلا بفضل ما سكبت في عروقك من الدم النفيس، وقد حل عليك غضبي، فلا بقاء لك بعد اليوم... وهل تستطيع أن تطبّ لما صنعت بنفسك أيها الورق الساقط ؟ لقد دعوتك إلى الترفق بمصيرك فلم تسمع، ومن أجل غفلتك لبست عليك ثوب الحداد، ولم أستغرب من فرحك بمصافحة الأرض، فأنا أعرف أنه لا يرحب بالاستعلاء غير الأقوياء، كما أعرف أن الأم لا ترحم من أبنائها غير الضعفاء ».

قال الورق :

« وبأي حق تستطيل علي، أيها الدوح، وأنت أسود مظلم، لا ترجَى لك صحوة ولا معاد ؟ »

قال الدوح :

« ذلك سواد الشباب، يا أحمق، وليس سواد الحداد[1]، ولن تقيم الحياة لدلالك أي ميزان، وهل تطول حياتك حتى ترى ازدهائي بالورق الجديد في الهوى الجديد ؟ إن الدم الذي سوّاك، سيسوى ورقاً سواك، وسأعبث هذا العبث بالأوراق إلى أن أبلغ الثمانين أو التسعين ! »

قال الورق :

« خذني إليك، أيها الدوح، فقد اشتقت إلى ساعدك القويّ المتين »

فأجاب الدوح :

« تعال إلي، إن استطعت، أيها الورق الساقط، فأنا لا أملك البعث

---

(١) هذه مغالطة من جانب الدوح، فقد اعترف قبل سطور بأنه لبس السواد حداداً على الورق، وسنرى بعد سطور أنه لفراق الورق حزين.

كما أملك الإنشاء، وهل أملك مساماة صاحب العزة والجبروت ؟ »

وتكلف الورق ما لا يطيق ليرجع إلى الدوح من جديد، ولكنه عجز عن تحقيق ما يريد، وتلك نهاية من يجهل السر في تمتعه بشرف الوجود، والشرف معناه الارتفاع، وقد انحط الورق بسقوطه على الأرض، فأمسى وهو ضعيف مَهين.

ثم قال الدوح :
ــ لن نلتقي بعد اليوم، أيها الورق الساقط، وكيف نلتقي وأنا أجد عناءً في التعرف إلى هويتك ؟ وهل أراك إلا وهماً يصوره الرفات المسحوق، مع قرب العهد بالفراق ؟

فأجاب الورق :
ــ ستجدني في الربيع المقبل.

قال الدوح :
ــ سأجد في الربيع المقبل ورقاً غيرك.

قال الورق :
ــ كنت أنتظر أن يكون في سخطك عليّ ما يزهدك في جميع الأوراق.

فصاح الدوح :
ــ كان ذلك لو أني أردت الانتفاع بالتجارب، والانتفاع بالتجارب يدل على العقل، ولكنه يشهد بضعف الحيوية، والخير أن نواجه الحياة في كل يوم بأحلام الناشئين، لا بعقول الكهول، لتبدو لنا الحياة بكراً في كل لحظة، كما تبدو الغابة المؤذنة بالوحشة والأنس في كل حين. ولو أني اكتفيت بما جربت من أخلاق الورق لكان من المستحيل أن أراك، بعد أن عرفت ما عرفت من شمائل سواك.

قال الورق :

ـــ وأستطيع أنا أيضاً أن أغفل الانتفاع بالتجارب وأرجع إليك في الربيع المقبل.

فضحك الدوح وقال :

ـــ وهل كانت لك معي تجارب أيها الورق ؟ هل رأيت مني ما يعاب حتى تزعم أنك فارقتني عن عتاب يمحوه التفضل بالإعتاب ؟ أنا الذي أنشأك، وأنا الذي رباك، وأنا الذي أوحى إليك معاني الشوق إلى الندى والضياء... أنت لم تفارقني لأني جفوتك أو أسأت إليك، وإنما فارقتني لأنك ضعفت عن صحبتي، كما يضعف السحاب عن مصاحبة الجبال.

قال الورق :

ـــ خذني إليك، أيها الدوح، لأذوق من دمك ما كنت أذوق.

فأجاب الدوح :

ـــ عيب الأقوياء أنهم لا يصفحون عن المذنب ولو عفّر جبينه بالتراب، وأنت أيها الورق الساقط جحدت جميلي، فلن أراك بعد اليوم ولو استشفعت بأزهار الربيع.

قال الورق :

ـــ وهل يكون الورق الجديد أجمل مني أو أصدق مني ؟

فأجاب الدوح :

ـــ لن يكون أجمل منك ولا أصدق منك، فتجارب أربعين سنة دلتني على أنكن جميعاً من وحلٍ واحد، ولكن الورق الجديد سيلقاني وهو على جانب من الغفلة والجهل، والغفلة والجهل يزيدان في قيمة الجمال، فإذا تعاقل وتعالم، كما تعاقلت أنت وتعالمت، فسيكون مصيره إلى أمه الأرض، وأستريح منه قبل أن يستريح مني.

قال الورق :

ــ أيكون معنى هذا الكلام أن لك سياسة مرسومة في امتهان الأوراق ؟

فأجاب الدوح :

ــ معنى هذا الكلام أني أحقد حقداً أبدياً على من يجحدون المعروف. لقد قضيت أربعين سنة أو تزيد في تعهد الأوراق بالرفق والعطف، فما حفظت ورقةٌ عهدي، ولا اعترفت بجميلي... ويعزيني ان الله ينتقم لي فما انخلعت عني ورقة الا كتب الله عليها الذبول والفناء.

ومع هذا فأنت لفراقي حزين، باعترافك في بداية هذا الحوار، وهذا الحزن هو انتقامي من غطرستك وكبريائك، وأنا أتوعدك بقول أحد الشعراء :

سأنساك فانظر كيف تحيا إذا انقضى نصيبك من روحي وحظك من قلبي

ونظر الدوح فلم ير الورق، فأين ذهب ؟ أين ؟ أين ؟

لقد عِصفت الريح فأطارت ما كان في « لكسمبور » من أوراق، وباد ما تعاقر الحديقة من « خشخشة » كانت أروع ما سُمع من الغناء في باريس.

قال الراوي :

وكنت فتى مصرياً لم يسمع مثل هذا الحوار بين الورق والدوح، فمصر الوفية لا تشهد انحلال الورق عن الدوح في خريف أو شتاء بغض النظر عن الأشجار المجلوبة من بلاد لا تعرف خلائق وادي النيل.

قال الفتى المصري :

وتسمعت ما يقول الدوح بعد ذهاب الورق فوعيت هذه الكلمات :

ــ إلى أين ذهبت أيها الورق، وكنت الشاهد على أن الضعف من عناصر الجمال ؟ إلى أين ذهبت وكان عطفي عليك دليلاً على أني من الأقوياء ؟ إلى أين ذهبت وبفضلك سمعت تغريد الحمائم والبلابل والعنادل، ولم أر بعد ذهابك غير وقر الجليد في « أعوام » الشتاء، وكل يوم في الشتاء بعام أو عامين لمن يعيش بلا أليف ؟

ثم سمعت الدوح يقول :

ــ لو كنت أملك من أمري ما يريد الهوى لخلعت العذار في البحث عن الورق الذاهب، ولكن الطبيعة التي أمدتني بالقوة قيدتني بالوقار؛ فأنا جاثم في مكاني، وإن كان هواي في بلدٍ بعيد بعيد، وآه ثم آه من المراعاة لما يوجب التغافل عن الهوى المشبوب !

وسمعته يقول :

ــ سقط عني الورق، لأنه ضعف عن مصاحبتي في أيام الشدائد؛ وهل يطالب الضعيف بما لا يطيق ؟ فما عتبي عليه وهو أضعف من أن يقاسمني المصاعب في أيام الشتاء ؟ وهل يتوهج الجمال إلا في أوقات اللين والصفاء ؟

ثم سمعت الدوح يقول :

« ألا يمكن اتهامي بإرغام الورق على أن يصير إلي ما صار إليه ؟ كان في مقدوري أن أضاعف له الكمية المبذولة من دمي، ولكنني جهلت الواجب فارتضيت أن يعيش في الخريف بمثل ما كان يعيش في الربيع. ولو أني ضاعفت له الدفء لكان من الممكن أن يفكر في حفظ الجميل، والدنيا أخذ وعطاء، ولو كره الأوفياء ».

قال الفتى المصري وهو يحاور قلبه بعد سماع ذلك الاعتراف :

لقد نطق الدوح بالقول الفصل، وأجاب عن هذا السؤال : « ما الذي يمنع من أن نعيش كما تعيش بعض الأشجار التي تخلع أوراقها في الخريف لتكتسي بأوراق جديدة في الربيع ؟ » وما وجهت إلى نفسي هذا السؤال إلا بعد أن عانيت ألوف المكاره من الوقوف عند حالٍ واحد في الحب والبغض، والاقتراب والابتعاد. والأوراق هي العواطف فما بالنا نحرص حرص الأشحاء على استبقاء تلك الأوراق، وفيها ما يصل إلى الذبول والجفاف، ومن الخير أن نخلعه بلا رحمة ولا إشفاق ؟ ما بالنا نحرص عليها حين تتصل بأحباب يصعب عليهم أن يقاسمونا شتاء الزمان ؟

إن الله لا يضن على الشجر بالورق الجديد عند قدوم الربيع، فهل يضن علينا بالهوى الجديد عند إستهلال الرخاء، وقد عرفنا من كرم الله ما لا تعرف الأدواح والأوراق ؟ وهل يملك الدوح من الحيوية عند سقوط الورق مثل الذي نملك من الروحانية عند خمود الوجد ؟ أكاد أجزم بأن الماء المكنون في الشجرة العارية من الورق لا يقاس إلى الجمر المكنون في القلب الخالي من الحب، فنحن والشجر إلى ربيع قريب، وإن استطال الشتاء.

وبعد لحظات عاد الفتى المصري إلى محاورة القلب :

ــ الدوح مجلل بالسواد، والسواد شارة الحزن، فما بال الدوح يحزن وهو غاية في القوة ؟

ــ الحزن من علائم القوة، وليس من علائم الضعف، فهو دليل على شعورنا بقيمة ما نفقد، ولا يقع ذلك إلا ونحن أقوياء، والجهلة هم الذين لا يفرقون بين الحزن والذهول.

ــ وكيف ؟

أنسيت ما قرأناه لأناطول فرانس من أن الموت نتيجة لضعف الـ vitalité.

ــ أذكر ذلك، ولكني أخشى أن يكون الحزن هو أيضاً نتيجة لضعف الحيوية.

ــ أنت مخطئ في هذا التأويل، فالحزن هو صوت الشهوة إلى النعيم المفقود، والشهوة لا تصدر عن النفس إلا في حالة الفتوة والأريحية والطغيان.

ــ وإذن فما بال جماعات من خلق الله تندد بالمحزونين ؟

ــ كما تندد جماعات من خلق الله بالفرحين !

ــ ماذا تريد أن تقول ؟

ــ أريد أن أقول إن الحسد هو الذي يحمل بعض الناس على التنديد بأهل الأحزان والأفراح، وما قام في الدنيا أدب ولا مجد ولا سلطان إلا بفضل ما في عاطفة الحزن أو الفرح من ثورة واشتعال.

ــ أتريد أن أحزن، يا قلبي؟

ــ أريد أن تفرح بالحزن الصادق، فقد كان شعار الأنبياء؛ أما الحزن الكاذب فهو شعار المتصنعين. إن للحزن آداباً يجهلها أكثر الناس، ومن آداب الحزن أن يصدر عن عاطفة لا عن تصنع، وأن يأخذ وقوده من الإحساس لا من الخيال، وأن يردنا إلى الصدق فيما نكتب وفيما نقول، وأن يزيد في احترامنا لأهل الأفراح، فهم إخوان أعزاء، ولو نقلهم الفرح إلى آفاق الجنون. أنظر إلى هذا التمثال وذلك التمثال !

قال الفتى المصري :

ونظرت فرأيت تمثالين : أحدهما لعامل مكدود، وثانيهما لفتى تحتضنه فتاة بأسلوب يمنع من وصفه أدب أهل الشرق، فقد ضمته إليها كما يضم الحبيب المحبوب، وما أحب أن أزيد، وهل أستطيع القول بأن

ذلك التمثال أفصح عن أشياء ينكرها الحياء ؟ من بلايا الزمن أن الكاتب لا يملك من الحرية ما يملك المثّال !

كان هذان المنظران المتباينان يمثلان السلامة الوجودية أصدق تمثيل، فالعامل المكدود هو مثال الحزن الشريف، واحتضان الفتاة للفتى هو مثال الفرح النبيل، وليس من العيب أن نفرح أو نحزن بإفراط وإسراف ما دمنا صادقين. وهل تهجم الفتاة على الفتى إلا طاعةً لغريزة كريمة هي سر البقاء ؟ وهل يجعد وجه العامل المكدود إلا في سبيل السعادة لأطفال يتمنى أبوهم أن يجهلوا معنى الفقر في أيام الشتاء : شتاء الزمان ؟

ثم عاد الحوار بعد لحيظات :

ــ حدثتك عما قرأنا لأناطول فرانس، فهل تذكر ما سمعنا لعهد الطفولة في سنتريس ؟

ــ لا أذكر من سنتريس غير أطياف بددتها أحلام باريس؛ فماذا تريد ؟

ــ كان أهل سنتريس يقولون : « لما يخضرّ التوت، البرد يموت ».

ــ وما معنى ذلك ؟

ــ معناه أن الأوراق هي الوقاية من البرد !

ــ وإذن ؟

ــ وإذن تكون العواطف هي الوقاية من شتاء الزمان.

ــ وما حال الشجرة التي لا ينخلع عنها الورق في أي وقت ؟

ــ هي شجرة سعيدة أعاذها القدر من اختبار الأحباب، ومزية هذه الشجرة أنها تتذوق ما في الأرض والهواء من حيوية عارمة لا تلتفت إلى تغير الفصول إلا في أندر الأحايين !

ــ وهل في مقدورنا أن نكون مثل تلك الشجرة ؟

ــ إذا تخلقنا بأخلاقها.

ــ وكيف ؟

ــ في الأسبوع الرابع من آذار تظهر تباشير الورق الجديد فوق غصون الأشجار التي عانت آلام العري في الشتاء، وننظر فنرى الأشجار الصغيرة أورقت قبل الأشجار الكبيرة، فنفهم أن للشباب يداً في سرعة الإيراق؛ وقياساً على ذلك يكون الشباب الدائم هو الذي يحمي بعض الأشجار من سقوط الورق في الشتاء.

ــ أيكون لهذا الملحظ دخل في تقديس شجرة « الجميز » عند قدماء المصريين ؟

ــ ليس هذا التخريج بغريب، وقد يضاف إليه أن لشجرة الجميز ميلاً إلى البر بالجيران؛ فهي تمد فروعها لتمتعهم بالثمار والظلال بلا انتظار للجزاء !

ــ أراك تهرب من الجواب !

ــ وأراك لا تفهم المعاريض !

ــ أنا أحب أن أعرف كيف أحتفظ بالشباب.

ــ إذا احتفظت بالعواطف.

ــ وكيف أحتفظ بالعواطف ؟

ــ وكيف أحتفظ بثروة من أعدائها الليل والنهار ؟

ــ أنت أقوى من الليل والنهار، إذا أردت ؟

ــ وكيف ؟

ــ إجعل الليل والنهار من خدامك.

ــ كيف ؟ كيف ؟

ــ لا تضيع لحظة واحدة بلا عملٍ نافع، فالعمل الموصول فن من السيطرة على شباب الزمان؛ ألم تسمع بأخبار نوح ؟

ــ وما أخبار نوح ؟

ــ عاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ــ وهل يعيش الإنسان ألف سنة إلا خمسين عاماً ؟

ــ بقليل من الفهم تدرك أن عمر نوح لا يرجع إلى الكمية الصورية،

وإنما يرجع إلى الكمية المعنوية؛ وقد استطاع نوح باختراع « السفينة » أن ينقذ الإنسانية من « طوفان » الفناء؛ فالعشرات من أعوامه تعد بالمئات. فاصنع صنع نوح، لتعيش عمر نوح!

قال الراوي:

ثم رأيتني أهتف بقول أحد الهائمين:

ولو أن عمري عمر نوح وبعته   بساعة وصل منك قلت كفاني

فالله وحده هو الذي يعلم قصة الورق والدوح. وهو الذي يعلم ما أعاني من البلبلة بين القاهرة وباريس وبغداد. وهو الذي يعلم كيف أفر من التصريح إلى التلميح، لينجو « الورق » من الافتضاح.

إن عاد الربيع، إن عاد، فسوف نعقد « معاهدة ودية » لا ينقضها خريف ولا شتاء.

وشبابي، شباب الجسد والروح يحدثني بأن الربيع إلى معاد ويلطف الله بمن يقول:

لنجواك أستبقي شبابي فعاطني   كؤوس الهوى قبل ابيضاض المفارِق

بين آدم وحواء *

كثُر الكلام في هذه الأيام عما كان بين آدم وحواء لعهد الجنة وعهد الأرض. وقد تورّط صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم فأقحم خياله الروائي في شؤون فَصل فيها التاريخ منذ أجيال طوال ولم يبق موجب لذلك التورّط بعد حُكم التاريخ، فهذا الصديق يعرف أن آدم من الأنبياء والتزيدُ عليه لا يجوز وإن احتال فزعم أنه يكتب باسم الفن لا باسم التاريخ.

وهل يستطيع بفنه الروائي أن يخلق من الصور مثل ما سجل المؤرخ شيث بن عربانوس، طيّب الله ثراه ؟

ولكن ما حديث ذلك المؤرخ المجهول ؟

لم أكن أعرف عنه شيئاً قبل سنة ١٩٣٣، وإنما هداني إليه أستاذنا المرحوم أحمد زكي بعد أن انتهى ما كان بيني وبينه من خصومة وصيال.

فإن سألتم كيف ابتدأت تلك الخصومة وكيف انتهت فأنا أدوِّنها في سطور ثم أمضي إلى ترجمة شيث بن عربانوس بإيجاز، تمهيداً لشرح آرائه في آدم وحواء بإطناب :

---

* نشرت هذه المقالة في العدد ٤٥١ بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٢.

كانت وزارة المعارف قررت إقامة حفلة تأبين الشاعر أحمد شوقي، حفلة يشترك فيها أقطاب الأدب في البلاد العربية، وكان منهاج الحفلة يوجب أن يتكلم الضيوف في الأوبرا الملكية تكريماً لمَقْدمهم الحميد. أما أدباء مصر فيتكلمون في الحفلات التي تقام بكلية التجارة، وهي حفلات دامت ثلاثة أيام، وكانت أشبه بسوق عكاظ، فقد اتسع فِناء الكلية للمئات أو الألوف ممن يسرهم أن يستمعوا كلمات الخطباء وقصائد الشعراء.

ومضيت لأشهد الحفلة الأولى بكلية التجارة فهالني أن أسمع خطيباً يتنحنح بعنف، مع أني لم أكن اجتزت عتبة الكلية، فسألت نفسي كيف يصل صوت التنحنح برغم تلك الأبعاد الطوال.

وبعد لحظة فهمت أن الحفلة أقيم لها ميكروفون، وأقيم لذلك الميكروفون مسامع في جميع الأركان. فمن السهل أن يَسمع صوت الخطيب جميع المارة بشارع « قصر العينى » أو شارع « أفراح الأنجال »، ولا تسأل عما تصنع النحنحة وقد ضجّت بها مسامع ذلك المذياع ؟

ونظرت فإذا الخطيب أحمد زكي باشا. فكيف غاب عنه وهو عالم علاّمة أن الميكروفون سينقل إلى الجيران وجيران الجيران نحنحته القوراء ؟

أمَا كان في مقدوره أن يدير وجهه أو يدير الميكروفون قبل أن يقترف ذلك الصوت ؟

أضحكني أن يقع شيخ العروبة فيما وقع فيه فأخذت أترصد له غلطة أدبية أو تاريخية لأهجم عليه في جريدة البلاغ، ثم اتفق لحسن الحظ أن قال كلاماً غير صحيح، وهو يتكلم عن مدح الرسول في « نهج البردة »،

وكنت يومئذ مشغولاً بتأليف كتاب « المدائح النبوية » فوجدت عندي من المحصول الأدبي والتاريخي ما يكفي لإفحامه بلا عناء.

وما كادت تظهر كلمتي فيه حتى اندفع الرجل لمصاولتي على صفحات البلاغ بأسلوب ساحق ماحق، وكان رحمه الله آيةً في الكرّ والفرّ، وكان لا يهجم على باحث إلا تركه كالرفات، بفضل اطلاعه الشامل وذكائه الوهّاج.

كنت يومئذ بين نارين : نار الخوف من التطاول على شيخ جليل خدم اللغة والأدب والتاريخ، ونار الخوف من الهزيمة أمام القراء، وأنا محرر الصفحة الأدبية بجريدة البلاغ.

وفي تلك المعمعة قدِم الباشا للبحث عني في الجريدة ومعه الأستاذ عبد الرحمن بك عزام فحدّق في وجهي وقال : أما تستحي من شتمي وأنا أستاذك ؟

فتماسكتُ قليلاً ثم قلت : وأنت يا باشا. أما تكفّ شرك عن تلميذك ؟

فابتسم عبد الرحمن بك وقال : لا موجب للجدل بعد هذا العتاب اللطيف !

ولكن زكي باشا لم يسكت عني، ومضى يلاحقني بإيذاء لم يفضّه غير الحادث الآتي :

كانت حوادث فلسطين وصلت إلى آلام وجراح، فأرسل زكي باشا إلى الحاج أمين الحسيني برقية مطولة كلفته احد عشر جنيهاً، وكان ينتظر أن يصل إليه جواب رقيق، ولكنه لم يتلق أي ردّ من الحاج أمين، فكتب إليه يسأل عن سر ذلك السكوت فكان الجواب أن البرقية وصلت،

ولكنها لم تكن بإمضاء « زكي باشا » وإنما كانت بإمضاء « زكي مبارك » !

وامتشق زكي باشا قلمه وأنشأ مقالاً أخذ أربعة أنهر من جريدة الأهرام، وكان في مقاله أن عامل التلغراف حرّف الإمضاء، فإن كان من مصر فإلى « الليمان » وإن كان من فلسطين فإلى « البحر الميت » وأعلن زكي باشا أن التحريف مقصود، وكانت حجته أن « زكي باشا » قد تُحرّف إلى « زكي الابراشي » بسبب « الشين » ولكنها لا تُحرّف إلى « زكي مبارك ».

وامتشقت قلمي فكتبت رداً وجيزاً نشرته الأهرام في أول نهر من الصحيفة الأولى، وكان الرد يتلخص في أن « زكي باشا » هو نفسه الذي أمضى باسم « زكي مبارك »، وحجتي أن الباشا مشغول بمناوشتي على صفحات البلاغ، فأنا ملء قلبه، ومن السهل أن ينسى اسمه ويذكر اسمي، ورأى زكي باشا أن التعليل مقبول، فذهب إلى إدارة التليغراف وطلب أصل البرقية، ثم ابتسم حين شاهد أنها باسم زكي مبارك، وبخط الباشا الظريف ؟

لم يكن بدّ من أن يدرك زكي باشا أن الأقدار أرادت أن تطوقه بالخطأ ليكفَّ عني أذاه. فاتصل بي تليفونياً ليدعوني إلى العشاء وإمضاء عقد الصلح، فأجبت بالقبول.

دخلت على الباشا العالم العلامة « العالم حقاً والعلامة صدقاً، فزكي باشا طراز وحيد من العلماء، وليس من السهل أن يجود بمثله الزمان ». دخلت على الباشا فوجدته في ثياب البيت وهو يلعب الشطرنج مع الدكتور « أحمد عيسى »؛ فأشار بعد السلام إلى أن أنتظر لحظات، فسيغلِبُ الدكتور أحمد عيسى ثم يلتفت إلى واجب الترحيب !

ومرَّت ساعة وساعة والخلائق تتقاطر بميعاد وبدون ميعاد؛ فعرفت أن

العشاء في بيت زكي باشا ليس لمن دُعِيَ إليه، وإنما هو لمن تداعَوْا إليه !

ثم مُدَّ السماط على الطريقة العربية، وأقبل خادمٌ فقدَّم إلى الباشا ورقة مطوية فمحا الباشا كلمة وأبقى على كلمة. فماذا محا ؟ وماذا أثبت ؟

كان التفاضل بين نوعين من الشراب : أحدهما عصير الشعير وثانيهما منقوع الخرُّوب. وقد رأى الباشا أن يكرم ضيفه المتخرج في السوربون فاختار الشراب الأول وهو شراب أصهب يُستطاب في ليالي الصيف !

لم أكن دخلت « دار العروبة » من قبل، ولا كنت عرفت كيف ظفرتْ بذلك اللقب الطريف؛ وكان مبلغ علمي أن صاحبها يتحدث عن العروبة في كل يوم؛ فهي دار العروبة لأنه شيخ العروبة، والألقاب لا تعسُر على أحد في هذا الزمان !

وفي تلك الليلة عرفت ما لم أكن أعرف : عرفت أن زكي باشا يسير سيرة العرب القدماء، فبيتُه مفتوح للجميع، ومن حق أي إنسان أن يحضر وقت الغداء أو وقت العشاء بدون احتياج إلى استئذان، على شرط أن يترك للباشا حرية التصرف في وقته بعد رفع السماط.

والحق أن زكي باشا كان ينوب عن مصر في مهمة من أصعب المهمات؛ فقد كانت داره مثابة الوافدين من الشرق، ولم يكن يحق لأيّ ضيف أن يتهم مصر بالبخل وزكي باشا موجود. وإنما نصصت على هذا الجانب من شمائل زكي باشا رعايةً للتاريخ، وأملاً في أن يقتدي به من يسرهم إكرام من يفد على مصر من أهل الشرق. فمن العيب أن يذهب السخاء العربي إلى غير مَعاد وكانت له مواسم في هذه البلاد !

وقد سمعت عن كرم زكي باشا في سره وعلانيته أخباراً لا يصدقها العقل، جزاه الله عما صنع خير الجزاء، وحفظ اسمه بين الكرماء، كما حفظ اسمه بين العلماء.

ثم أرجع إلى الغرض من هذا الحديث فأقول :

جلست أسامر زكي باشا بعد العشاء تمهيداً للصلح المنشود؛ فقد كنت في سريرة نفسي أُومن بأن التطاول على مثل ذلك الرجل قد يعرّضني لغضب الله. وأنا أخاف الله أشد الخوف لأنه حماني من أن أخاف أحداً سواه؛ فمن المخاطرة أن أشجُع في موطن لا تكون فيه الشجاعة من رضاه. وكذلك عزمت على أن أتلطف ما استطعت لأظفر من زكي باشا بالصفح الجميل.

ــ هذه أول مرة تأنس فيها « دار العروبة » بزيارة الدكتور مبارك.

ــ ليست هذه أول مرة أتشرف فيها بزيارة « دار العروبة » أعزها الحب !

ــ ما هذا الكلام ؟ وما رأيتك هنا قبل اليوم !

ــ سمعت أخبار دارك، أيها الشيخ الجليل، وكنت أشعر أني شريك بالقلب لكل من يفد عليها من أهل الشرق، وما غاب عني كرمٌ تؤدّي به فرض الكفاية عن بلادنا الغالية فابتسم زكي باشا وقال :

ــ ما كان ضرّك لو قلت هذه الكلمة وأنت تلاحيني على صفحات البلاغ ليخف عتبي عليك !

ــ سأقولها يا مولاي لجميع الناس، وسأملأ بها مسامع الأرض والسماء.

ــ إسمع، يا مبارك، إسمع، إن أدبك في هذه اللحظة يستأهل جائزة سنية، جائزة تذكرني بها طول حياتك، وقد تكشف لك عن أشياء من غوامض التاريخ القديم، وهو التاريخ الذي أرادت شراستُك أن تجعله ظنوناً في ظنون !

ــ أعظم جائزة أتلقاها من أستاذي هي رضاه عني.

ــ الجائزة العُظمى لمن كان في مثل أدبك أن تُهدَى إليه النسخة

الوحيدة من كتاب شيث بن عربانوس. أما رضاي عنك فهو مضمون مضمون.

ومضى الباشا لإحضار الهدية، ثم عاد ومعه كتاب في أكثر من خمسمائة صفحة بالخط الكوفي، وهو مجلد على طراز المصاحف المحفوظة بدُور المعاديّات[1].

أقبلتُ على الكتاب بلهفة وشوق، ثم لاحظتُ أن منزلتي عظُمت في قلب زكي باشا حين رآني أقرأ الخط الكوفيّ بلا عناء، وعندئذٍ تذكرت جناياتي على نفسي وعلى مصيري في هذا الوجود.

وما تلك الجنايات ؟

سأتكلم بصراحة لأخدم قرائي، فقد يكون فيهم من انحرف عن طريق النفع كما انحرفت.

يعرف الناس أن مِثال الحرص على طلب العلم والأدب، وتعرف مكتبتي أني صديق يزورها في كل يوم، ويعرف قلمي أني أخلو إليه في كل ليلة ساعة أو ساعتين.

فكيف تخلفتُ مع ذلك الحرص؛ وكيف جاز، أن أكون واحداً من الناس، وكفاحي يوجب أن أكون أوحد الناس، لو نجوت من ذلك الانحراف ؟

يرجع التخلف الذي أعانيه إلى أني أقبلت على علوم وفنون يُقبل عليها أكثر الناس، ويَصعُب فيها الادّعاء، لأن عليها رقباء يعدّون بالألوف.

---

(١) صفحات هذا الكتاب غير مرقمة وما قدرتها بخمسمائة إلا على وجه التقريب، ولو كان للعدد أهمية لعددته صفحة صفحة قبل أن أكتب هذا الحديث.

أردت التفوق في علوم اللغة العربية فوصلت إلى أشياء، ولكن علوم اللغة العربية مبذولة لجميع الطالبين، وليس من العسير أن يكون لي نظراء في كثير من البلاد.

وأردت التفوق في الدراسات الجامعية فنِلت إجازة الليسانس مرة وإجازة الدكتوراه مرات، ولكن الدراسات الجامعية لم تَعُد من الأسرار، فمن السهل أن يكون لي فيها منافسون.

وأردت أن أكون من كتاب اللغة العربية وشعرائها وخطبائها فكان ما أردت، ولكن هذا الميدان محفوف بالأخطار في كل صباح وفي كل مساء بسبب نشاط الزملاء.

وأردت أن أتفوق في اللغة الفرنسية فبلغت ما أريد، ولكن اللغة الفرنسية يجيدها ألوف أو ملايين، فأين مجال التفرد والأزدهار ؟
آه، ثم آه !!

كان الرأي أن أقصر جهودي على اللغات الميتة، وهي لغات يدّعيها من شاء كيف شاء، بلا رقيب ولا حسيب. ألم تسمعوا أن في الناس من يزعم أنه يجيد عشر لغات من لغات القدماء : كاللاتينية واليونانية والديموتيقية والسريانية والبابلية والحبشية والسنسكريتية والفهلوية، .إلى آخر ما تعرف الأنظمة الجامعية ؟!

من الذي يحاسب مدرس اللغة اللاتينية إذا أخطأ ؟ ومن الذي يجادل مدرس اللغة الديموتيقية إذا انحرف ؟ ومن الذي يراجع مدرس اللغة البابلية إذا حاد ؟ ومن الذي يتقدم فيردع من يخلط بين النصوص الحبشية والحميرية ؟

عرفت فيمن عرفت رجلاً يعجز عن كتابة صفحة سليمة باللغة العربية،

مع أنه من أبوين عربيين، ولم يمنعه ذلك الضعف من ان يكون أستاذ اللغة البابلية في إحدى الجامعات الأمريكية!

وعرفتُ فيمن عرفت شخصاً يتصدَّر لتدريس إحدى اللغات الميتة في كلية تحيط بها حديقة بالقرب من نهر له مكانة في التاريخ، وهو شخص لا يجيد لغة قومه الأحياء، فكيف يسهل عليه فهم لغة مات أهلها منذ أزمان؟

لو أني التفت إلى هذه الناحية لأرحت نفسي من منافسات لا تطاق.

كان من السهل أن أتعلم الأبجدية من إحدى اللغات الميتة، فالأبجدية تكفي للتفوق في اللغات البوائد!!

وهل فُضِح فلان لأنه أخطأ عشر مرات في خمسة سطور كتبها باللغة العربية إلى عميد إحدى الكليات بأحد البلاد؟

هو متخصص في اللغة الأكادية، أو اللغة القنقلية، فكيف يطالب بإجادة اللغة العربية؟

وهل يستطيع أحدٌ أن يطالب الدولة بمحاسبة هؤلاء وهو يعرف أن الدولة تريد أن تسامي الأمم الأوروبية والأمريكية في الحذلقة الجامعية؟

الدولة على حق والشاهد الآتي يؤكد ذلك الحق:

قال فلان: القنقلون كلمةٌ آرامية، وهي الكنكلون في السريانية، والفنكلون في البابلية، والكنفلون في الآشورية، ومعناها القنقلون، والوصف منها متقنقل ومتكنكل، ومتفنكل، ومتكنفل، على خلاف في صياغة الأوصاف.

ومن أجل هذا العلم الغزير تنفق الدولة ما تنفق لإحياء لغات ماتت في

بلادها الأصيلة بسبب انعدام الحيوية، وعلينا نحن أن ننفض عنها أتربة القبور، لأننا موكلون ببعث الأموات.

الأوروبيون يدرسون اللغة اللاتينية واللغة اليونانية ليعرفوا أصول لغاتهم ولينقلوا ما في هاتين اللغتين من نفائس الآداب.

وقد عرفَت اللغات الحية في أوربا خير ما أُثِر عن اللاتينية واليونانية، ونحن لن ننقل تلك الآثار إلى لغتنا إلا عن الفرنسية أو الإنجليزية، فما الموجب لقتل الوقت في درس لغات ميتة لن ننقل عنها أي حرف ؟

يضاف إلى ذلك أن الشواهد تنطق بأن الشبان الذين قهرناهم على درس اللغات الميتة قد ضاعوا على مصر وعلى أنفسهم من الوجهة العقلية، وإن كانوا أساتذة محترمين، وكيف لا نحترم من يعرف من أسرار القنقلون ما لا نعرف ؟

أتريدون الحق ؟

الحق أن مصر تبتدئ من حيث انتهى الناس.

والحق أن مصر تحاول أن تخلق من الدراسات الجامعية لوحة إعلانات عن قربها من العقلية الأوربية، وكأنها لم تسمع أن أوربا بدأت تنفض يديها من التعصب للأموات.

لو أن ما أُنفِق على درس اللغات الميتة كان أُنفِق على ترجمة ما أُثِر من تلك اللغات لظفرنا بنفائس تزيد في ثروتنا الذوقية والأدبية، ولكننا أطعنا الوهم فأضعنا أموال الدولة وأعمار الطلبة في شؤون قليلة النفع والغناء، مالي ولهذا ؟

أنا أضعت الفرص السوانح في درس أبجديات تلك اللغات، وهي فرص لن تعود، فما تستطيع الأمة بعد اليوم أن تنفق درهماً فيما لا يفيد، إن صحّ أن الأمة صَحَتْ من غفوتها فأدركت الفرق بين ما يفيد وما لا يفيد !

إن زكي باشا طرب حين رآني أقرأ الخط الكوفي بلا عناء، فكيف يكون حاله لو نظر فرآني أقرأ الخط السنسِكريتي ؟

وهل أجهل الخط السنسِكريتي ؟

أنا أعرف منه ما لا يعرف فلان، فليجادلني فيه إن استطاع !

إفتحوا أعينكم يا بني آدم من أهل هذه البلاد، واعرفوا أن الحذلقة الجامعية لن تنفعكم في كثير أو قليل، وتذكروا جيداً أن العلم الصحيح هو علم هذا الزمان، وستأثم الجامعة المصرية إن شُغلت عنه بأوهام التاريخ.

إسمعوا قبل أن لا تسمعوا، فأنا أخاف عليكم أشياء لا تخطرُ لكم في بال، وهذا نذيرٌ من النُّذُر الأولى يصوّبه إلى عقولكم كاتب يبغض المداهنة والرياء.

(للحديث شجون)

بين آدم وحواء* ــ ٢ ــ

أرجع ثانيةً إلى الغرض من هذه الأحاديث فأقول :

كتاب شيث بن عربانوس يؤرخ عهد آدم في الجنة وعهده في الأرض، وكان ذلك لأن المؤلف قريب الزمن نسبياً من هذين العهدين؛ فقد وُلد في العام الثاني بعد انحسار الطوفان، وإذاً فهو أقدم نسلٍ حفظته الأرض بعد نجاة من نجا من قوم نوح، وأول عقلية علمية في ذلك العهد البعيد، إن صح أنه شخصية حقيقية من شخصيات التاريخ.

ولكن ما قيمة هذا الكتاب ؟ وما وزنُ حديثه عن آدم وحوّاء ؟

عرضتُه على دار الكتب المصرية وعلى مكتبة وزارة المعارف وعلى مكتبة الجامعة المصرية فلم أجد من يعترف بقيمته التاريخية، وإن كان مكتوباً بالخط الكوفي... وهل كنت أجهل أن الطعن في صحته من الممكنات ؟ إنما كان همي أن أنتفع بثمنه، وأن أمكّن الجمهور من الاطلاع على ما فيه من مقاصد وأغراض، ولكن الأمل في الانتفاع بثمنه أمسى خيالاً في خيال، ولو ثبت أنه نسخة قديمة من نسخ الإنجيل، وهل

---

* نشرت هذه المقالة على صفحات مجلة الرسالة في العدد ٢٥٢ بتاريخ ٢ مارس سنة ١٩٤٢.

زكّتني سفارة غربية أو شرقية حتى أبيع من المخطوطات ما أشاء...؟ أنا مصريٌّ وآبائي مصريون، فكيف أنتفع من مصر باسم العلم والأدب والتاريخ ؟

ألم تسمعوا حديث الأجنبيّ الذي استمصَر في سنة ١٩٣٧ ؟

كان أحد الأجانب يدرّس إحدى اللغات الحية بالمدارس الأميرية وبالمرتب الذي يتقاضاه الأجانب من المدرسين، ثم لاحت له فرصة للتجنس بالجنسية المصرية، فأسرعت وزارة المعارف وردّته إلى « الكادر » الذي تعامل به المدرسين من المصريين، كأنه انتقل من الهُدى إلى الضلال؛ وكان الظن أن تراه انتقل من الخوف إلى الأمان !

وإذا كانت المتاعب تُلاحق من يَستمصِر من الأجانب، فكيف تصنع بالمصري الأصيل ؟!

إلى الله يشكو المصريون شقاءهم وعناءهم من التغاضي عن حقهم في الانتفاع بثمرات البلاد !

إلى الله نشكو الغربة في الوطن الغالي، ومنه نستمدّ العون على مكاره الزمان !

ما لي ولهذه الخواطر المزعجات ؟ وهل قلّت المتاعب الجديدة حتى نؤزّرها بمتاعب قديمة تأخذ وقودها من الذكريات ؟

أرجع إلى الغرض مرة ثالثة فأقول :

قبل الشروع في تلخيص كتاب شيث بن عربانوس أسجل أني غير مطمئن إلى أنه أُلف في العصر الذي تلا الطوفان — وما أقول بأن ذلك مستحيل — فقد يكون من الممكن أن ننظر إلى الطوفان من وجهة معنوية، فنعدّه مرحلة من مراحل الغفوات الروحية في الحياة الإنسانية، ونعدّ العصر الذي تلاه عصر يقظة ونهضة وإحياء، وعندئذ يصبح من

السهل أن نفترض أن ذلك العصر يَصلُح لما صدر عن شيث بن عربانوس من أفكار وآراء.

ولكن هنالك عقبة تمنع من ذلك الافتراض، وهي إجماع الكتب الدينية على ان الطوفان وقع بالفعل، وانه لم يبق من السلالة الإنسانية إلا ما حفظته سفينة نوح... ومن الواضح أن تلك البقايا كانت في شغل بتدبير حياتها المعاشية؛ فمن العسير أن نتصور أنها عرفت التأليف والمؤلفين إلا إن توغلنا في شعاب الفروض !؟

يضاف إلى ذلك أن المصادر التي تحت أيدينا لم تتحدث عن شيث بن عربانوس؛ ولم نسمع أن اسمه ورد في كتب المستشرقين — وهم حجة فيما يتصل بمجاهل التاريخ في الشرق — وقد يعرفون منه ما يجهل الشرقيون !

فأين وجد زكي باشا ذلك الكتاب ؟

كان في النية أن أوجه إليه هذا السؤال، ولكن المنية عاجلته فقضت بأن تطول الحيرة في مصدر ذلك السِّفر الغريب.

وفي الحق أني غير مصدّق لكتابٍ لغتُهُ العربية مع أنه أُلّف بُعَيْد الطوفان.

وهنا أذكر حادثةً في نهاية من الغرابة، ولكنها وقعت على مسمع من جمهور كبير في أروقة السوربون يوم أديت امتحان الدكتوراه في الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٩٣١؛ فقد حاجّني المسيو ماسينيون حِجاجاً عنيفاً حين رآني أُنكر أن تنشأ اللغات بالتوقيف... وإن عادت الدنيا إلى ما كانت عليه ورأيت المسيو ماسينيون بعافية فسأُراجعه في هذا الحِجاج؛ فما يستطيع ذهني أن يسيغ فكرة التوقيف؛ وإنما أعتقد أن اللغات ظاهرةٌ إنسانية يصنع بها التطور ما يصنع على اختلاف الأجيال.

المهم أن أسجل أني مرتاب في كتاب شيث بن عربانوس، ولن أقبل نسبته إلى ذلك العهد البعيد، العهد الذي تلا الطوفان. وأين نحن من الطوفان وهو صورة حائرة لم يبق من ملامحها غير أطياف ؟

فمتى أُلف هذا الكتاب، إن صح ذلك الارتياب ؟

إن لغته مزيج من القرشية والحميرية، فهل أُلف قبل أن تصير لغة قريش لغة التخاطب والتأليف في أشتات الجزيرة العربية وفيما خضع لسلطانها الأدبي من الممالك الإسلامية ؟

ألا يكون مؤلفه صنع ذلك عمداً على سبيل التضليل ؟

الله وحده هو الذي يعلم ما مرّ بهذه الوثيقة التاريخية من تمحّل واحتيال.

المشكلة الأساسية

أترك الكلام عن صحة كتاب شيث، وأنتقل إلى تشريح ما فيه من معاني وأغراض فأقول :

يقع الفصل الأول في صفحات تصل إلى الخمسين، وفي هذا الفصل نقض للنظرية التي تقرر أن آدم استكان لحواء، فتركها تعصى الله كيف تشاء، فالمؤلف يقرر أن آدم كان تعب من الإقامة في الجنة، وكان يتمنى لو استطاع أن يخرج منها بأي حال وعلى أي أسلوب ليتنسم روح الوجود، لا رَوْح الخلود، فقد كان يعرف بفطرته أن الخلود إنما يأخذ صورته من الوجود[1].

---

(١) نحن لا نوافق شيث بن عربانوس في كل ما رواه، والغرض هو تقديم صورة جديدة من آراء لم تكن معروفة من قبل.

(الرسالة) : ونحن نقول مرة أخرى إن الدكتور مبارك كاتب معدود فعليه وحده تبعة ما في رأسه من آراء، وما في مكتبته من كتب.

وثورة آدم على الجنة لها أصل : فقد كان يرى أنه لا يليق بالإنسان أن يأكل طعامه بلا جهاد، وكان يرى من الضعة والمهانة أن يُترَك المرء بلا متاعب ولا تجارب، وهو لم يخلق إلا للكفاح والنضال.

وزاد فيّ همّ آدم أن حوّاء كانت في الجنة بلا ضَرّة، فلم تقهرها الغيرة على التسابق إلى مواقع هواه؛ بدليل أنها كانت تنساه أو تتناساه عاماً أو عامين، بلا تلهّف ولا تشوّف، لأنها تعلم أنه لن يكون لسواها من النساء، ولو أضمر من ضروب الخيانة ما يريد خياله الحبيس، وإلا فكيف جاز أن تقضي في الجنة أعواماً بلا تبرّح ولا اختيال ؟

وفي هذا المقام نقل شيث أبياتاً عزاها إلى آدم عليه السلام، وهي من النظم الركيك، فلا موجب لإثباتها في هذا التلخيص، ويكفي أن نشير إلى معناها لجودته وصدق مغزاه، وهو يقول بعبارة صريحة إن حواء لم تكن تفرق بين البلادة والعقل، ولم تكن تعرف أن التودد إلى الرجل والترامي عليه في رقة ودلال لا ينافي الأدب والحياء.

كذلك قال آدم في رواية شيث. وعلى فرض أن الرواية صحيحة فآدم مخطئ ــ وأنا أريد آدم الرجل لا آدم الرسول ــ وإنما أخطأ لأنه تصور أن التلطف يجب أن يصدر أولاً عن المرأة والتلطف، هنا معناه الفتك وهو من جانب المرأة دلال، ومن جانب الرجل صيال.

إذا كانت حوّاء أجرمت في ترك آدم عاماً أو عامين فآدم أجرم أيضاً بسكوته عن شكل تلك الظبية النفور بشكال من الحب العارم والوجد العَصُوف.

وهنا تظهر مفاجأة من أغرب المفاجآت، فشيث ينقل عن تأملات آدم خطرات تبدد ما وجهنا إليه من اعتراض.

وسأنقل تلك الخطرات بعبارة سهلة تقرِّبها من أذهان القراء بعض

التقريب « لأنها في لغة شيث لا تخلو من غموض والتواء » ثم أنقدها برفق رعاية لمكان ذلك الجد الجليل.

كان جلوس آدم على شطِّ الكوثر من وقت إلى وقت يوحي إليه أفكاراً في غاية من الطرافة النسبية، لأنه أول إنسان شهد الوجود، على أرجح الفروض[1].

كان يعرف أن الجنة في غاية من العَرض والطول، بحيث تتسع لسكان الأرض والسموات[2] فكيف جاز أن يكون فيها غير نهر واحد ؟

كذلك قال آدم في رواية شيث، وهو قولٌ خاطئ، فوحدة النهر في الجنة لها مغزىً جميل، لأنها تردّ أهل الجنة إلى مزاجٍ متقارب في فهم الأشياء. وهل يختلف سكان الأرض إلا باختلاف الطعوم فيما يأكلون وما يشربون ؟ لو اتحد مذاق الطعام والشراب بين جميع سكان الأرض لقل بينهم الخلاف. ألم تروا كيف تختلف الطبائع بين الحيوانات اللحمية والحيوانات النباتية ؟

إن القط في صورة الأسد، ولكنه ليس في صولة الأسد، لأن معدته لا تأخذ من اللحم إلا عُشْرَ معشار ما تأخذه معدة الأسد؛ وهو يروّع الكلب الضخم بأقل إشارة، لأن الكلب لغفلته قد يكتفي بالأطعمة المكونة من عناصر نباتية !

وما أقول بأن اللحم أفضل من النبات في جميع الأحوال، وإنما أقرر أن اختلاف الأغذية هو السبب في اختلاف الطبائع. وكذلك أقول في اختلاف الفصول، وهل كان اطراد الجوّ في الجنة على نسق واحد إلا بشيراً بما سيكون بين أهل الجنة من وفاق وصفاء ؟

---

(١) لهذه الاشارة معنى سنرجع اليه حين يجيء مكانه من هذه الأحاديث.

(٢) هل كانت عند آدم فكرة عن الأرض والسموات ؟

وكانت غيبة حواء عن آدم توحي إليه التفكير في منافع الأعضاء. كان يتأمل فيرى أن الله خلق للانسان عينين وأذنين ولساناً واحداً فما سر ذلك ؟

يجيب آدم — فيما روى عنه شيث — بأن الله أراد أن يكثر زاد الإنسان من المرئيات والمسموعات، ولا بأس بأن يقل نصيبه من المنطوقات؛ لأن الرؤية والسماع من ضروب الانتهاب، أما النطق فمن صنوف الإعطاء، والانتهاب هو الشاهد الأول والأخير على قوة الحيوية، أما الإعطاء فهو تسليم وانسحاب.

وقد ابتسمت حين قرأت هذا الكلام. فعنه أخذ الشاعر الذي سجل أن المرء يقبض يده عند الولادة ويبسطها عند الموت، وإن جهل التعليل على وجهه الصحيح.

وتحرير هذا المعنى أن المرء عند الولادة مقْبل على الحياة، فهو يقبض يده ليشير إلى أن وظيفته هي الأخذ والنهب، وهو يبسط يده عند الموت ليشير إلى أن التبذير من صور الفناء.

ثم يمضي آدم في تأملاته فيقول : كيف يقنع من رُزق عينين باصرتين بوجهٍ واحد : وهو وجه حواء ؟ وكيف يقنعُ من رُزق أذنين واعيتين بصوت واحد : هو صوت حوّاء ؟

من هذا التأمل العارم كان ضجر آدم من وحدته في الفردوس ويظهر أن آدم كان وُهب فكرة الاعتراض والجواب، فقد خطر له أن حواء لها أيضاً عينان وأذنان، وأن من حقها أن تفكر في مثل ما فكر فيه، إن أقيم للعدل ميزان.

ثم يجيب آدم بأن تساوي الجوارح بين الرجل والمرأة ليس دليلاً على التساوي في المواهب ولا دليلاً على التساوي في الإحساس. ويبلغ غاية

الشوط فيقرر أن المرأة كانت بعينين وأذنين لأنها أُخذت من ضِلع الرجل فهي من صوره الوجودية، أو هي الشكل الذي يرضيه أن تكون عليه ليتم بينهما الانسجام في حدود الإمكان.

وأقول إن هذا الكلام هداني إلى كثير من المعاني :

فالحوَل يكثُر في النساء ويقلّ في الرجال، ومعنى ذلك أن للذكر مثل حظ الأنثيين، حتى في القوة البَصرية[1].

وإذا وُجد العوَر في إحدى السلالات فالطفلة ترثه قبل الطفل.

وإذا كان أحد الأبوين غبياً دميماً وثانيهما ذكياً جميلاً فالغالبُ أن يَرِث المولود الذكر ما عند أبويه من الذكاء والجمال[2] ويؤيد هذا أن الديك أجمل من الدجاجة، وأن الجواد أجمل من الفرَس، وهذا الحُكم مطّرد في أكثر المخلوقات، وهو يظهر واضحاً في أشجار التوت، بغض النظر عن ظهوره في سائر الأشياء.

وإذا صدّقنا رواية شيث عما كان بين آدم وحوّاء فلن يفوتنا أن نسجل أن آدم هو الذي نطق قبل أن تنطق حواء، وهل كان لتلك المرأة تاريخ في الجنة غير انصياعها لدسيسة الحية، وعن الأنثى تنقل الأنثى أصول الفساد ؟

الظاهر أن للذكورة خصائص لا تصل إليها الأنوثة بأي حال. والظاهر أيضاً أن الرجال لن يزالوا بخير ما فطِنوا لمكر النساء. وهل انخدع آدم بحيلة حواء أو حيلة الحية إلا في لحظة من لحظات الضعف[3] ؟!

---

(١) سنرجع إلى هذا المعنى بشيء من التفصيل.

(٢) واللون أيضاً يرثه الذكر قبل الأنثى.

(٣) سيجيء لهذه النقطة توضيح في كلام شيث.

وأستطرد قليلاً فأقول :

وقع في هذه الأيام حادثٌ فظيع، هو اصطدام أحد كبار الموظفين بسيارة يقودها أجنبيٌّ سكران، وعُلِّق الموظف بمقدَّم السيارة، ومضى السائق ينهب الأرض لينجو من العقاب. وتنبهتْ لخطر الفادحة سيدة مثقفة، فمضت بسيارتها في ملاحقة ذلك الجاني الأثيم، ولكنها فوجئت بإشارة المرور فوقفتْ !!

وهنا الشاهد الذي أريد : فلو كان في سيارتها رجل لداس إشارة المرور في سبيل الواجب؛ ولم يترك ذلك الجاني الهارب بلا اقتناص أو افتراس.

هي امرأة وإن نالت إجازة الحقوق، وطاعةُ إشارة المرور هي في نفسها الصورة الحرفية لطاعة الواجب، أما تشريح هذه الدقائق فهو من خصائص الرجال، والرجل هو الذي يدوس جميع الأنظمة في سبيل الإعزاز لما يؤمن بأنه حق.

وجملة القول أن سخرية آدم من مواهب حوّاء لم تكن طغياناً في طغيان، وإنما اعتمدت على قواعد وأصول. ولم تقع من آدم إلا لأنه كان يستوحي الفطرة والطبع، ولو أن الجنة لعهده كان فيها مدارس وكليات لكان من المرجح أن يكون حديثه عن حوّاء مُغلَّفاً بالرياء !

ثم تجيء عقدة أغرب وأعجب، وهي تفكير آدم في مسألة النسل، وهي مسألة لم يفكر فيها آدم إلا بعد تأمله لما في الجنة من فصائل الطير والحيوان، ولم يكن فطن إلى أنها مسألة تلحق عالم النبات، وقد تمس عالم الجماد.

ومن كلام شيث نفهم أن تفكير آدم في مسألة النسل لم يصر من المعضلات النفسية، وإنما كان يعتاده من حين إلى حين، ثم ينصرف عنه

بالانشغال بمداعبة حواء، كأن يرميها بنواة من نوى الجوز، أو يقذف بها في « الكوثر » على حين غفلة، أو يدوس شعرها الذيّال.

والحق أن عقم آدم في الجنة يحتاج إلى تأويل.

أليس من العجب أن يكون ما في الجنة خصباً في خصب ونماءً في نماء، إلا فيما يتصل بآدم وحواء ؟

كان الشجر والزهر والنبات والطير والحيوان، كان كل اولئك في حيوية مخصبة لا يعتريها ضعف ولا خمود ؟ وكان ثرى الجنة ينبت الأفانين من الألوان كل يوم : وكان هواؤها يتجدد في كل لحظة بأسلوب يدل على أن الهواء مخلوقٌ له روح، وكانت أسماك الكوثر تجتمع وتفترق بأريحية ودلال... كان كل ما في الجنة على جانب من الذاتية، ولو كان من صغار الدوابّ والحشرات، أو ضعاف الذباب والبعوض، ولجميع الخلائق في الجنة مكان.

ازدهرت الجنة في أغلب مناحيها وأثمرتْ، وخُصَّ بالعُقم آدم وحواء، فما هي الأسباب ؟

لم يفكر شيث بن عربانوس في تعليل هذه الظاهرة الغريبة. ونحاول تعليلها فنقول :

كان سبب ذلك العُقم فيما نفترض أن حياة آدم وحوّاء في الجنة كانت حياة دعة وهدوء واطمئنان وأمان، وهذا اللون من الحياة يخمد الحيوية الجنسية والمعنوية، ويحوّل الرجل والمرأة إلى حيوانَيْن جامدَين لا يفكران في التسلح لدفع عوادي الوجود.

والذي يقرأ ما أُثِر من الآداب الفطرية يلاحظ أن النسل لم يكن يُبتغَى للزينة، وإنما يبتغى للدفاع والحِفاظ؛ ومن هنا كانت قلة النسل من خصائص الأمم التي يقل خوفها من العدوان أو تقل رغبتها في السيطرة والاستعلاء؛ ومن هنا أيضاً كان الناس يفضلون البنين على البنات، لأنهم

لا يبتغون من الذرية غير القدرة على مكافحة الباغين والعادين من الخصوم والنظراء.

ولم يكن لآدم في الجنة نصيبٌ من الخوف، فقد كان ينام حيث يريد بكل اطمئنان، وكان يتفق له أن يجعل صدر الأسد الرابض وساده الرفيق، وقد طاب له مرة أن يطوّق « حوَّاء » بعقد مؤلف من أفراخ الثعابين.

ومع هذا لم يكن « آدم » يدرك ما في هذه المظاهر من غرابة وشذوذ، فما كان سمع ولا عرف أن في الوجود أشياء فيها إيذاء.

وأقول : إن ذلك الأمان الموصول هو الذي أخمد عواطف « آدم » وأغناه عن التسلح بالنسل، وحبّب إليه طعم القرار والهدوء والخمود. وكذلك صنع الأمان « بحوّاء »، فغفتْ عواطفها الجنسية، واستنامت إلى العُقم، وهو مرض لم تلتفت إليه إلا حين رأت إحدى الظبيات تباغم رشأها الوليد في بعض غياض الفردوس.

ويؤيد هذه النظرية أن « آدم » لم ينجب إلا حين هبط الأرض، فقد شعر بالخوف، وأدرك أنْ لا بد له من أنصار وأعوان من الأبناء.

ومعنى ذلك أن الذرية ضربٌ من الفاعلية الحيوانية، وهي تصدُر عن الرجل كما يصدُر السم عن ناب الثعبان.

وفي هذا المقام نشرح ظاهرةً لم تُشرَح من قبل، وهي ما يلاحَظ من قلة النسل عند العبقريين، فما التعليل الصحيح ؟

يرجع السرّ إلى أن السلاح الماضي في يد الرجل العبقري هو مواهبه الذاتية، فهو يحارب بالفكر قبل أن يحارب بالنسل، وهواه لا يقف عند إخضاع الخصوم من الأهل والجيران، وإنما يمتد إلى إخضاع الألوف والملايين من سكان الشرق والغرب والشمال والجنوب.

والنسل الحِسّيّ عند الجاهل سلاحٌ موقوت يخلقه الخوف؛ أما النسل المعنوي عند العالم، فهو سلاحٌ موصول تخلقه الرغبة في السيطرة الدائمة على الأفكار والعقول.

ولهذا السبب كانت ذخائر الأمم من الذرية لا تصل عن طريق العبقريين، لأن هؤلاء لا يشعرون بالانفعال الحيواني شعوراً يكفي لأن تصبدر عنهم الأنسال الكثيرة، وإنما يتجه انفعالهم إلى جانبٍ آخر هو الرغبة العاتية في غزو العالم عن طريقِ الفكر والبيان.

وهل فطن أحدٌ إلى المعنى المطويّ في قول كُثيِّر :

بُغاثُ الطير أكثرها فراخاً وأُمّ الصقر مِقْلاتٌ نَزُورُ

فما معنى ذلك ؟ معناه أن أم الصقر لا تحتاج إلى حماية، فهي لا تُكثر من الذرية. ومعناه أن ضعف البغاث يوحي إليها بالإكثار من الأفراخ لتقاوم خصومها بالقوة العددية في حدود ما تطيق.

والمشاهَد أن المرأة الدميمة في الأغلب ولود، كما أن المرأة الجميلة هي في الأغلب عقيم، وكان ذلك لأن الدمامة تحتاج إلى حماية من الذرية؛ أما الجمال فهو في ذاته قوة وسلطان.

وللملائكة في أذهان الناس صور مجردة من النسل، لأن الملائكة مؤيدون بقوة ربانية عن الاعتزاز بالأبناء.

والله عزّ شأنه « لم يلد ولم يولد » لأنه منزه عن الضعف تنزيهاً خالياً من الشوائب، وهذا لا يمنع من أبوّته الروحية لجميع ما في الوجود، إن صح التعبير بالأبوّة في الدلالة على رفق الخالق بالمخلوق.

وصفوة القول أن عقم آدم في الجنة له أصل، فقد كان أكرم في الجنة، وكان المنطق يوجب أن يعيش بلا أسندة من الذرية غناه عن الكفاح والنضال.

ولكن... ولكن الأقدار أرادت غير ما يريد، فنقلته من الجنة إلى الأرض، ليشعر بالخوف، وليحتاج إلى معاصم من الأبناء، وليذوق طعوماً من الأفراح والأحزان لم تكن تخطر له في بال.

والواقع أن الله كان أراد بآدم أشياء، حين خلق له حوّاء، فقد شغلته عن التكبير والتسبيح والتهليل، وزيّنت له الثورة على ما في الجنة من أنظمة وقوانين.

وشيث يحدثنا أن آدم كان صدرُه ضاق بالجنة بسبب ما لها من أسوار وجُدران تجعل من المستحيل أن يسلم من تعقّب حواء، وتفرض عليه التفكير في طلب النجاة ولو بالارتماء في أحضان الأرض، مع أن بين الجنة والأرض فراغاً لا يَعبُره الهابط إلا في أعوام أطول من أعمار الأشجان. وسنرى فيما بعد أنه لم يفق عند هبوط الأرض إلا بعد أزمان وأزمان.

هل كان آدم سعيداً في الجنة ؟

الظاهر أنه كان من السعداء، ولكن شيث بن عربانوس يحدثنا أنه طفح الدم في الجنة بسبب صحبة حواء. فكيف وقع ذلك البلاء ؟!

وقع من عدم التكافؤ الروحي بين الرجل والمرأة، فهما مخلوقان مختلفان إلى أبعد حدود الاختلاف. وزاد في النفرة أن آدم كان يميل إلى طاعة الله، وأن حوّاء كانت تشتهي الخروج على طاعة الله. وتعليل ذلك سهل: فاسرع الناس إلى المخالفة عن أمر الحق هم الضعفاء.

صبرَ آدم ما صبرَ إلى أن وقع « حديث السِّدرة »، وهو حديث سجله شيث بن عربانوس بأمانة ونزاهة وإخلاص. فما ذلك الحديث ؟!

حديث السدرة *

كانت حوّاء تعبثْ من عقل آدم، وكان آدم تعب من جهل حواء، وكان جوّ الخلاف ينذر بأن صاعقةً ستنقضّ على رأسيهما بعد حين... ولذلك الخلاف المزعج تفاصيل في كلام شيث بن عربانوس، فما تلك التفاصيل ؟

كانت الأوامر والنواهي ثقُلت على آدم وحوّاء (لحكمة يعلمها الله) وكان آدم مع ذلك يتذرَّع بالصبر الجميل، فيراعي الحدود بقدر ما يستطيع. أما حوّاء فكانت تتمرد من حين إلى حين، وإن كان شيث يؤكد أن تمردها لم يكن في جوهره إلا فنًّا من فنون الدلال.

ويظهر من كلام شيث أن حوّاء لم تكن تدرك أن النعيم قد يزول بالعصيان، فما دار في خَلَدها أن في الوجود مكاناً غير الفردوس يُنفَى إليه العصاة والمتمردون، ولا جاز في وهمها أن يُنقَل الإنسان من دار إلى دار بسبب الثورة على الأدب والذوق. وكيف تدرك حواء هذا المعنى وقد وُلدتْ في جنة دانية القطوف، ولم تسمع بأخبار الأرض إلا بعد أن قضى الله في أمرها بما أراد ؟

---

* نشرت هذه المقالة في العدد ٤٥٣ من مجلة الرسالة بتاريخ ٩ مارس سنة ١٩٤٢.

ويظهر أيضاً من كلام شيث أن آدم كان يخاف الله أشد الخوف، وكان يدرك بفطرته أن النعيم قد يزول بالعصيان، وأنْ لا بدّ من تأديب حوّاء إن تمادت في الضلال.

كان آدم يفهم جيداً أن الله لا يتأذى بجهل الناس، وإنما يوقع العقاب بالجاهلين لخروجهم على نظام الوجود، وهو نظام يتأثر باليسير التافه من الانحراف، لأنه غاية في الدقة والترتيب، ولا يحتمل الثبات على الاعوجاج.

وكان آدم يُقسم لئن رأى حواء ليذيقنّها العذاب على ما اعتزمت من قُرب شجرة التين[1]؛ ولكنه كان يتخاذل حين تُقبل عليه بجسمها الفينان، وثغرها الرشوف، فقد كانت ثناياها أحب إليه من حَبّ الرمان، وكان قدها الرشيق نهاية ما يتصور من روعة الخطرات.

كان آدم يشعر بأن عزيمته تتحلل إلى أوهام حين يرى جسم حواء، وكان يعجب من أن يكون في الأوامر والنواهي ما يضع حدوداً لسيطرة تلك الظبية العصماء.

والظاهر أن الجسد الجميل يزيغ البصائر والعقول، وينقل الرجل من حال إلى أحوال، ويضيف الحلم إلى طوائف السفهاء، ولا عاصم للرجل من فتنة الجمال إلا أن حمته وقاية الله.

وكان قدّ حواء من القدود السمهرية، وكانت لها مِشية تزلزل القلب والوجدان، وكان لها في الضوء لون وفي الظل لون، وكانت ظلال الأهداب توهم أن على خديها زغباً يشبه زغب الخوخ، وكان غضبها

(١) اختلفت الأقوال في « الشجرة » فقال قوم : هي الكرمة، وقال قوم : هي شجرة التين، وشيث لا يذكر غير الشجرة الثانية.

أحلى من الرضا وقطيعتها أطيب من الوصال، وكان تثنِّيها وهي تتخطّر فوق شط الكوثر غريبة الغرائب في السحر والفتُون.

وكان آدم أضعف من أن يقاوم حواء، فقد كان في فورة الشباب، والشباب جهل، وكان أعجز من أن يرجع على نفسه بالتأديب والتهذيب وهو يعاقر الجمال لأول عهده بالوجود، وأخطر الحب هو الحب الأول، ولكل آدم في الدنيا حواء.

كان آدم يُقسم ويقسم ثم يقسم لئن رأى حواء ليُقطِّعنها إلى قطع صغيرة حقيرة ثم يقدمها إلى ما في أرباض الجنة من ثعالب وذئاب، جزاءً بما تقترف من التفكير في قرب شجرة التين، ولكنه كان يُصعَق حين تُشرف عليه بقدها المرهف وطرفها النشوان.

كان يبدأ بالزجر، ثم ينتقل إلى العتاب، ثم ينتهي بالاستسلام، وذلك مصير الغرماء لأمثال حواء.

دعاها مرة إلى أحد الأدغال ليقتلها في خفية ويستريح، فحماها منه جسمها المجدول بأسلاك الكهرباء، فارتدّ وهو هائم حيران، وعرف أن الهوى فرضٌ على من وهبه الله نعمة الشعور بعبقرية الجمال.

كان آدم رجلًا وكانت حواء امرأة، وإذا تلاقَى الرجل والمرأة فلا مجال لغير الغيِّ والضلال، وقد غوَى آدم بطاعة حواء فقضى الله في أمره بما سجل التاريخ.

جسد حواء صنع به ما صنع. جسد حواء غفر جهل حواء. جسد حواء فعل بآدم الأفاعيل، فزيّن له الخضوع لهواها الأثيم.

كان آدم يضطرب ويرتعد، حين تختال أمامه حواء بقدها المؤلف من الأحلام والأهواء، وكان لا يعرف أين يضع قدميه وهي تساوره بعينين

غافلتين عما تصنعان بقلبه المأخوذ، وعقله الموقوذ، وهل يبقى لمن يصارع الجمال قلبٌ أو عقل ؟

جسد حواء صنع بآدم ما صنع، ولكنه تماسكَ في إحدى اللحظات وقد جالسها تحت السِّدرة فدار بينه وبينها ماسجل شيث من هذه الأحاديث :

ـــ أين كنت يا حواء ؟
ـــ وما أنت وهذا السؤال ؟
ـــ من حقي أن أسأل
ـــ وليس من واجبي أن أجيب !
ـــ إذن نفترق ؟
ـــ وإلى أين تذهب، وللجنة أسوار أمنع من الجبال ؟
ـــ السور الحصين هو أنت يا شقية، فإذا نجوتُ منك فقد نجوت من جميع المهالك والحتوف
ـــ أنت تنجو مني يا آدم ؟ أنت تنجو مني ؟

« ونظرتْ إليه بعينين نجلاوين فخشع واستكان وهمّ بأشياء »

ـــ كل ما فيك جميل يا حواء، إلا التفكير في قرب شجرة التين...
ـــ والموت أهون من الصدوف عن شجرة التين
ـــ هي محرّمة بأمر الله
ـــ وكيف وقد رأيت ظبية تعطو إلى أوراقها منذ لحظات بلا تهيب ولا تخوُّف ولا احتراس ؟
ـــ الظبية حيوان
ـــ ونحن من الحيوان
ـــ ولكن التكاليف تجعلنا أعظم من الحيوان
ـــ وما قيمة التكاليف ؟
ـــ التكاليف لا توجَّه إلا إلى الحيوانات الراقية

ــ وأنت حيوانٌ راقٍ يا آدم ؟
ــ لأني في صحبة حواء !

« وهنا وقع اشتباك بين خلقتين فطريتين لم يؤهلهما التهذيب لمراعاة الأدب في النضال والصيال »

ــ كان الظن أن تعرف ما نعاني من الظلم في الفردوس
ــ وماذا نعاني يا حواء ؟
ــ نعاني الخضوع للأوامر والنواهي، وتلك أول مرة أفهم فيها المراد من وصف الله بأنه صاحب العزة والجبروت
ــ وهل يظلمنا الله يا حواء ؟
ــ انعدام المساواة من صور الإجحاف
ــ أتريدين أن نكون أشباهاً لما في الجنة من طير وحيوان ؟
ــ وما المانع من ذلك ؟
ــ المانع أننا ارتقينا؛ وللرقيّ تكاليف
ــ وما حظُّنا من الرقيّ المقيَّد بواجبات وفروض ؟
ــ وهو حظٌّ عظيم، يا حواء
ــ وكيف ؟
ــ لأنه يجعل لنا إرادة ذاتية
ــ ومعنى ذلك أن يبيحني أن أصارعك فأصرعك ؟

وتصارع آدم وحواء فانصرعتْ حواء »

ــ لا تنزعجي من الهزيمة، أيتها الشقية !
ــ أحب أن أعرف ماذا تأكل حتى صرت أقوى مني
ــ طعامنا واحد، ولكن الروح مختلف
ــ يظهر أنك تأكل من شجرة التين[1]

---

(١) في هامش الكتاب عبارة تفيد أن حواء كانت تتوهم أن آدم يأكل خفية من شجرة التين وأن ذلك سبب قوته العاتية.

ـــ قوتي الحقيقية ترجع إلي الانتهاء عن أكل شجرة التين، وطاعة الله هي أعظم سلاح يتسلح به الرجال

ـــ والنساء ؟

ـــ الطاعة قوة ينتفع بها جميع الخلائق، حتى الشجر والنبات

ـــ نحن إذاً خُلقنا للمتاعب، فالطاعة لا تتم إلا بجهاد عنيف

ـــ الجهاد الصادق رزقٌ نفيس، يا حواء، ولا يكون إلا بتوفيق، فهو يستحق الشكران.

ـــ أتريد أن أجاهد نفسي فأبتعد عن شجرة التين ؟

ـــ ليتك تفعلين !

ـــ إسمع يا آدم، فعندي فتوى تنفعك

ـــ أنت تُفتين يا حواء ؟

ـــ دع اللجاجة ثم اسمع... حدثتني الحية أن النهي عن شجرةِ التين نهيُ تنزيه لا نهيُ تحريم

ـــ وإذن ؟

ـــ وإذن يجوز قرب الشجرة بلا تعرض لغضب الله، وإن تعرضنا للعتاب[1]

ـــ إسمعي يا حواء واعقلي... أنا لا أعرف الفرق بين نهي التنزيه ونهي التحريم. إنما أعرف أن الله نهى عن الشجرة، وأعرف أن الطاعة واجبة، وأنا أخشى عواقب العصيان

ـــ قلت لك إن الحية حدثتني...

ـــ أنت في نعيم يحتاج إلى حراسة، فاحترسي من الدسائس يا شقية!

ـــ كل شيء جائز، إلا أن تكون في الجنة دسائس، فهذب كلامك يا آدم !

---

(١) لم نر هذا الكلام في غير كتاب شيث.

ــ الدسيسة لا تُلاحِقُ غير السعداء بالعيش الطيب والمواهب السامية.
وستعرفين يا حواء صدق ما أقول إن استمعت كلام تلك الرقطاء

ــ قلت لك إن قرب الشجرة لن يعرّضنا لغضب الله

ــ ولا يعرضنا للعتاب ؟

ــ عواقب العتاب هينة، وهو في الأغلب يتوج بالإعتاب

ــ المهم في نظري أن نقف حيث وقفتنا الإرادة الربانية، بلا تخريج ولا تأويل، فكل خروج على الطاعة يترك في القلب حفرة، والحفرة قد تتحول إلى هاوية، وإذا تذوق المرء أو المرأة طعم الجموح فعلى الأخلاق العفاء

ــ أنا لا أفهم معنى النهي عن شجرة التين، ولها ثمر معسول

ــ من حق الله أن ينهي عن الطيبات

ــ لأي غرض ؟

ــ ليختبر قدرتنا على ضبط النفس، فلا قيمة لترك الأشياء الكريهة، وإنما القيمة في ترك الأشياء الشهية حين يوجَّه إليها النهي، ولو عن طريق التنزيه، كما أفتت الحية الباغية

ــ لا تذكر الحية بسوء فهي صديقتي

ــ آفة من الآفات أن تكون للمرأة صديقات !

ــ هل يغيظك أن يكون لي في الجنة رفيقة أسكن إليها من وقت إلى وقت ؟ أنت إذن لا تحبني

ــ أحبك حباً لا يطاق، ولهذا الحب عواقب ستعلمين أنباءها بعد حين !

ــ قبلني إن كنت تحبني

ــ ستقبّلك الحية فهي أقرب إليك مني !

« وفي تلك اللحظة سُمع فحيح هو دعوة الحية، فجرت إليها حواء، وتركت آدم لمصارعة ما في صدره من آراء وأهواء ».

فماذا قال آدم لضميره وهو يحاوره تحت السدرة بعد انصراف حواء ؟

من كلام شيث نفهم أن آدم زُلزل بعد ذلك الحوار، فقد تأهبت نفسه لمناقشة الأوامر والنواهي، وصح عنده أن لكل مسألة وجهين، وأن من حقه كمخلوق مفكر أن يدرس ما يعرض لذهنه من حقائق وأباطيل.

بدا له أولاً أن الطاعة أفضل، وأن الهيام بالتخريج والتأويل قد يكون من نزعات الشياطين؛ ثم رجع فرجح أن النهي قد يكون ضرباً من الإغراء، فليس بمعقول أن تكون ثمرة التين من الخبائث وهي فيما يظهر طيبة المذاق.

والتفت مرة ثالثة فرأى من الحمق أن يخالف الرجل أمر الله من أجل امرأة.

ثم عاد فرأى أن تلك المرأة هي رفيقه الأول والأخير في الفردوس، فما ارتاحت نفسه لرؤية الأشجار والأزهار إلا وهو مأهول الروح بهوى حواء.

هي امرأة لا تخلو من هَوج وطيش وسخف، ولكنها من ذوات المعاني، فقد كانت تعرف كيف تصيره جذوة من الصبوة حين تشاء، وكان آدم لا يتمتع بإشراق الفكر إلا في لحظات الصبوات.

ومن عجيب أمره أنه كان يتمثلها حين تغيب، فقد كانت ذاكرته تعي الأصوات والألوان والحركات إلى الحد الذي يسمح بأن يعانق حواء وبينه وبينها فراسخ وأميال.

ولكن... ولكن الله نهاه عن الشجرة، فماذا يصنع ؟ توجّه إلى الله بهذا الدعاء :

« يا خالق الكوثر، ويا فاطر الأعناب والنخيل، بك أستجير من ظُلم الجمال !

يا مبدع العيون الكحيلة، والخدود الأسيلة، بك أستغيث من سحر الفُتُون !

أنت سوّيتني بيديك من جسد وروح، وأنا بالروح أطيعك وبالجسد أعصيك، فهل ترى عدالتك أن الحسنات يُذهبن السيئات ؟

إن كنت ترى أن شجرة التين شجرة مسمومة فاصرف عنها حواء، فلم تعد لي طاقة على مقاومة حواء؛ ولطف صنعتك هو الذي جذبني إلى تلك الهوجاء.

وإن كنت ترى أن الهاوية تترقب من يعصيك فجرّد حواء من سحرها الفتّان لأملك من أمري ما لا أملك، ولأستطيع الصبر عن ثغرها الرشوف، فأنت يا مولاي تعلم أني بها من الهائمين.

أنا عبدُك وحواء أَمَتُك، فاقض في أمرنا بما تشاء، يا أحكم الحاكمين ».

وانتظر آدم أن يغيّر الله ما بنفسه بعد هذا الدعاء الصادق، ولكن الأقدار سكتت عنه فظل مخلوقاً من جسد وروح، أو من طين وماء.

وفي لحظة من لحظات الضجر عزم على المعصية ليعرف مكانه من الوجود.

في تلك اللحظة ظهرت حواء فهتف :

ــ إلى شجرة التين، يا حواء !

ــ هل غيّرت رأيك، يا آدم ؟

ــ بعض الشيء !

ـــ أنت إذن تحبني ؟

ـــ ومن أجل هذا الحب أتعرّض لمكاره وخطوب، فقلبي يحدثني بأننا مقبلون على بلاء !

ـــ لا تحزن فأنا معك

ـــ من موجبات الحزن أنك معي، يا حمقاء !

فكيف انتهت بهما الأمور تحت شجرة التين ؟

(للحديث شجون)

تحت شجرة التين*

جاهد آدم نفسه في حدود ما يطيق... وماذا يطيق المرء وهو يجاهد النفس في أهواء تسوقها امرأة ؟ سينتهي أمره إلى الهزيمة، إلا أن تؤيده قوة ربانية تصرف عنه السوء وترده إلى الاعتصام بالعقل. ولحكمة يعلمها الله ضُعف آدم عن مقاومة حواء، ودعاها إلى التلاقي تحت شجرة التين.

وهنا يذكر شيث في كتابه أن حواء تلكأت في الاستجابة لذلك الدعاء، ولزمت مكانها تحت شجرة الطلح، كأنها تريد أن تحمله على الإلحاح فيكون البادئ بالعصيان.

ولو تأمل شيث قليلاً لذكر تعليلاً غير هذا التعليل، فالرأي عندي أن حواء توهمت أن لآدم رغبة في شجرة التين، وأن تمنّعه لم يكن عن صدق، وإنما كان يريد أن يحمّلها تبعة العصيان.

والحوادث تؤيد هذا الافتراض، فما كاد آدم يخبر حواء بأنه سيسايرها فيما تريد حتى فترت رغبتها في قرب الشجرة المحرَّمة، وأعلنت اكتفاءها بما أحلّ الله من طيبات الفردوس.

* نشرت هذه المقالة في العدد ٤٥٤ على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ١٦ مارس سنة ١٩٤٢.

فما معنى ذلك ؟ وما مغزاه ؟

معناه أن حواء تحب أن تسلك في جانب يغاير ما يسلك آدم من الجوانب، فقد أحبت حواء التين حين ثار آدم عليه، ثم زهدت فيه حين رأته من هواه، وإلا فكيف جاز أن يدعوها فلا تجيب وهي التي قهرته قهراً على أن يذعن لما تريد من قرب شجرة التين ؟

وابتسم آدم حين رأى حواء تهدأ بعد ثورة وتلين بعد شِماس، ثم حمد الله على انحسار الغمة وانجلاء الضيق، وأخذ في الاستغفار من الذنب الذي اقترف. فقد حدَّثه الضمير بأنه أذنب بالفعل، وإن لم يذق الثمر الممنوع، لأن نية السوء لا تقل بشاعة عن السوء في نظر الأخلاق، وكان آدم يعرف أنه يعامل الله، والله يحاسب على النيات بأقسى مما يحاسب على الأقوال والأفعال، لأنه يحب لعباده أدب الملوك لا أدب العبيد.

ثم نظر آدم فلم ير حواء، فأين ذهبت ؟

فتش عنها في غياضٍ كثيرة، وسأل عنها أسراباً من الطير والظباء فلم يظفر بجواب، فأين ذهبت ؟ وكيف ضاعت ؟ وما السبيل إلى مكانها في الجنة الفيحاء ؟

أتكون غضبتْ من طاعة آدم وكانت تحب أن يتمرد ؟

لقد خطر لآدم هذا الخاطر، فقد علمته التجارب أن حواء لا تتمتع بالصحوة الجسدية والروحية إلا في أوقات الخلاف. وهل ذاق آدم حلاوة حواء إلا في لحظات الثورة على الأوامر الربانية ؟

أمرُ هذه المخلوقة أعجب من العجب، فهي لا تحلو ولا تطيب إلا عند النضال، وهي تفقد كل قيمتها حيت تتناول شؤون الحب في طاعة مجردة من الإحساس، كالطاعة التي تصدر عن فتاة لم تبلغ سنّ الكيد، وكيدُ المرأة إثمٌ جميل !

فكّر آدم طويلاً في غيبة حواء، وانزعج حين خطر له أن تكون حُرِمت الثورة على ما ترى وما تسمع، وأنها لذلك سكنت إلى العزلة في جُنَينة مهجورة يسقيها نُهيرٌ مجهول من رواضع الكوثر وهي رواضع تُعدّ بالألوف[1].

وعاد آدم إلى نفسه ليعرف حاله في غيبة حواء، فصحّ عنده بعد التأمل أن العبادة الصحيحة لا تكون إلا بالجهاد، ولا جهاد بدون أهواء.

يجب أن يكون في الوجود حرامٌ وحلال، لنشعر بالذاتية في قرب هذا واجتناب ذاك، وإلا صرنا خلائق تواجه الوجود بلا اكتراث، وإذا انعدم الاكتراث فقد انعدمت الأخلاق. وقد يكون العصيان عن نية أفضل من الطاعة بلا إحساس، لأن المهمّ أن نُدان حين نعصى، ونُثاب حين نطيع، ولا يتمّ ذلك بغير النية الواضحة فيما نباشر من مختلف الأعمال..

أتكون حواء ترهّبت فلاذت بأحد الكهوف ؟
ذلك ما خاف آدم أن يكون، فالترهب نذير الموت، وهو يكره لحواء أن تموت.
وكيف يعيش آدم إذا غفا كيد حواء ؟

لقد أبدعته إبداعاً وأنشأته إنشاءً، حين تولّت إضرام الجمر المكنون في قلبه الوسنان، وآدم رجل، والرجل يحفظ الجميل.
ومرّ حين وأحيان وأحايين وحواء لا تعود.
وشعر آدم بانعدام أسباب الثورة والهدوء فأيقن بقرب الفناء
وما حياةُ الرجل إذا خلت من الأحلام والحقائق والأباطيل ؟
ما حياته إذا حُرِم التنقل من ضلالٍ إلى هدًى، ومن هدًى إلى ضلال ؟

---

(١) الرواضع هي النهيرات التي تأخذ زادها من النهر الأعظم، أما الروافد فهي النهيرات التي تمده بالسيول.

قيمة الرجل بالجهاد، ولا جهاد بدون أهواء، وقد أمسى صدر « آدم » وهو جلمود أملس لا ينبت الأزهار ولا الأشواك ولا يثبت فوقه تراب ولا ماء.

والتفت « آدم » فرأى من الخير أن ينقطع للاستغفار ليتوب الله عليه، وهل أذنب حتى يتوب ؟

إن كان كل حظه من المعصية أنه رضي مسايرة « حواء »، وقد ذهبت « حواء » ولم يبق موجب للقنوت والابتهال.

الموت أفضل من حياة تخلو من مقارعة هوى النفس في كل يوم. والرجل الذي يواجه المعاني بقلبٍ أغلف شبيهٌ بالرجل الذي يطالع سفر الوجود وهو معصوب العينين. وهل كان الموت فناءً إلا لأنه يصدنا عن صنع الخير واجتراح الآثام ؟

وما طعمُ الاستغفار على لسان من لم يذنب ؟ وما لونُ الطاعة في عين من لم يقاوم الأهواء ؟

لقد مات « آدم » وهو حي، فلم يعُد يدرك ما في الفردوس من سِحر وفُتون.

كان « آدم » يجد لذة في ضرب « حواء »، فأين هي الآن ليتمتع بلطم خدها الأسيل ؟!

وكانت « حواء » تجر « آدم » إلى مآزق تُشعره بقوة الحيوانية، فأين هو اليوم من تلك المآزق ؟ وأين سبيله إلى الفتك والجنون ؟

لقد خلت حياته من جميع المعاني بعد غيبة « حواء »، وما كان يعرف أنها تملك من الروحانية الأثيمة ذلك الحظ العظيم.

وانطلق « آدم » يراود معاهد الحب، عله يجد « حواء » مختبئة في

بعض ألفاف البواسق، على نحو ما كان يقع في الأوقات السوالف، ولكنه لم يظفر بغير اليأس.

أين « حواء » ؟ أين « حواء » ؟
أين الصبية الجميلة التي أوحت إليه فكرة الثورة على الشرائع ؟
أين الخلقة الحلوة التي زينت له طعم العصيان ؟

كان آدم يشتهي جميع ما في الجنة من أطايب قبل أن تفارقه حواء، ثم امسى وهو موقوذ الشهية بسبب الفراق، وهل تطيب الحياة لمن يعيش بلا أنيس موسوم بالصباحة والجمال ؟

ذلك نعيم ذهب، وأمل ضاع، فليقتل آدم نفسه إن شاء. هي امرأة مخبولة، ولكنها مشتهاة، والشهوة رزق من الأرزاق، وإن قيل في تجريحها ما قيل.

كان آدم يهز الشجرات المثمرات ليُطعم حواء، وهو اليوم يرضى بما يسقط من الثمر المعطوب، إن بَقِي له شيء من نعمة الجوع، والجوع نعمة لا يحسها غير الأصحّاء.

كان لآدم في الجنة تاريخ بسبب اللجاجة التي كانت تثور عن حواء من حين إلى حين، فما حياته وقد أمسى مغسول القلب والروح والوجدان ؟

أيعبد الله بالاستغفار ؟ ومم يستغفر وهو مقتول الأهواء ؟
أيسبّح لله ؟ وكيف ؟ إن التسبيح تنزيه وهو معنًى لا يُدرَك بغير القياس ؟

لو عادت حواء لاستطاب آدم شجرة التين، ولكن متى تعود ؟ لقد اكتفت الشقية بأن تطمئن إلى أنها مصدر ضلاله وهداه؛ وكذلك رأت أن

تتركه في حيرة دامية عدداً من الأعوام العجاف؛ وبغيُ المرأة لا يحتاج إلى برهان.

استيأس آدم فرضي بالانزواء في أحد الأدغال، وعند ذلك شعرت حواء بالشوق إلى مصاولته من جديد، والمرأة يؤذيها أن يهدأ الرجل، ولو كان في المحراب.

ـــ آدم ! آدم !

ـــ حواء ؟

ـــ نعم، حواء، ألا تراني ؟

ـــ كنت حسبت أنك ذهبت إلى غير مآب

ـــ قبل أن نأكل معاً من شجرة التين ؟ هذا مستحيل !

ـــ وهل نعصى الله يا حواء ؟

ـــ سترى أن المعصية طيبة المذاق (؟!)

وتنبّه آدم فرأى أنه مقبل على خطر جديد، فدار الحوار بأسلوب جديد.

(للحديث شجون)

شروق العقل*

أفاق آدم من غفوته عند قدوم حواء، وكان المنتظر أن يتلقاها بالضم والتقبيل، ولكنها عاجلته بضربة قاصمة هي تذكيره بشجرة التين، فغام قلبه بعد صفاء، وعاد فانطوى على نفسه كما يصنع الأرقم في ليالي الشتاء.

ــ آدم، ما لي أراك شارد اللب ؟

ــ من الفرح بقدومك بعد طول الغياب !

ــ أنظر، أُنظر، ألا ترى أني صرت أنضر من أزهار التفّاح ؟

ــ وأحلى من أثمار التفاح !

ــ إذاً ما هذا الخمود الذي يغالب قُواك ؟

ــ ما أنا بغافل عن واجب الترحيب بهذا الجسم الفينان، الجسم البديع الذي أضلني وهداني، ولكني تذكرت « صلاة الشكر » وهي صلاة لا تتم بلا اعتكاف، فإن رأيت أن تتركيني وحدي لحظة أو لحظتين...

ــ انتهابُ الجمال هو في ذاته شكران لواهب الجمال

ــ أَبغَضُ ما تكون المرأة حين تتفلسف، فاتركيني لصلاتي، وإلا مزجت الكوثر بدمك النجيع. إنصرفي ولا ترجعي إلا إن سمعت ندائي.

---

* نشرت هذه المقالة على صفحات مجلة الرسالة في العدد ٤٥٥ بتاريخ ٢٣ مارس سنة ١٩٤٢.

* « وخافت حواء عواقب هذه الغضبة فولت هاربة لا تُلوى على شيء وتركت آدم للصلاة، وهي ترجو أن تكون صلاته أقصر من الأمل في سيادة العدل »

فماذا وقع بعد انصراف حواء ؟
هل صلّى آدم ؟ وكيف تصح له صلاة وقلبُه يفور، وعقلُه يثور ؟

أخذ آدم يفكر فيما انتهى إليه أمره وأمر حواء، فقد كانا غايةً في الطاعة والخضوع، فما الذي جدّ حتى أصبحا غايةً في التمرد والعصيان ؟

أيرجع السبب إلى وسوسة إبليس ؟
ولكن إبليس كان يوسوس منذ أزمان ولم يصل إلى شيء، فكيف وصل بعد اليأس ؟

هناك أدرك آدم أن السر يرجع إلى النموّ الملحوظ في جسده وجسد حواء، وأيقن أن اضطرام الأجسام يصنع ما تعجز عنه ألوف الأباليس... وهل تنجح الغزوات الخارجية إن لم تصادف قبولاً من الأهواء الداخلية ؟

وزاد في اقتناع آدم بهذه النظرية ما كان يلاحظ على فصائل الطير والحيوان، فقد كان يشاهد انها لينة رفيقة في أول عهدها بالوجود ثم تغلب عليها القسوة والشراسة حين تصير إلى النضج والاستحصاد !

وإذن ؟ وإذن يكون تطوّر الفاعلية الجسدية مصدر التطور في الفاعلية العقلية !

ثم ؟
ثم يكون في كل تطور جديد إبليس جديد
وعلى هذا يكون لحواء في طغيانها عذرٌ مقبول.
وما ذنبُ حواء ؟ ما ذنبُها وقد استحالت إلى دوافع ونوازع وأهواء ؟

نظرتْ مرة إلى نهر الكوثر في لحظة سكون فرأت خيال وجهها الجميل وقد استدار في هالة من السحر والفتون، فقدّرت أنْ سيكون لها تاريخ، وعجبتْ من أن يتغامى آدم عن حسنها الفتّان، كأنها تجهل أن آدم صار ألعوبة في زمامها المخبول.

وخلاصةُ ما قرأت في كتاب شيث أن آدم لا يقيم وزناً لنزعات إبليس، وإنما يرى أن الجسد هو الأصل، وأن ألفافه مكوَّنة من أباليس، وأن ثمر الشجرة المحرّمة قد يزيده فورةً إلى فورة، وجموحاً إلى جموح.

وهل غاب عن آدم أن ثمرات التين سريعة العطب والفساد ؟

لقد تأملها مرة ومرتين ومرات، فعرف أنها معرَّضة لأخطر الجراثيم، وأدرك أن سمها قد يؤرّث ما في الأجسام من السم المكنون فتستشري وتهتاج[1].

وإذا كان آدم عجز عن رياضة حواء وهي صحيحة، فكيف يروضها وهي مريضة ؟

خطرتْ لآدم هذه الخواطر وهو يبحث عن السر في تمرد حواء... لقد كانت طفلةً وديعة، فكيف صارت امرأةً خبيثة؟ تطوُّر الجسد صنع بها ما صنع، فأمست وهي أخطر من الحية النضناض، ولن يكون إبليس بأمكر من حواء، بعد أن تبلغ مبلغ النساء.

وكان آدم يعرف أنه يحمل الجانب الأخطر من المسؤولية؛ فهو السبب الأصيل في تمرّد حواء، وبفضل شبابه وصياله ذاقت أفاويق الضلال.

---

(١) تحرير هذه الفكرة أن الانحراف في الطبائع هو الأصل في انحراف الأخلاق.

والذي ينتظر أن تهدأ المرأة وأمام عينيها رجل، شبيهٌ بالذي ينتظر أن تهدأ النار وقد أُلقِمَتْ أكداس الحلْفاء... لقد كان آدم يطرد حواء ثم تعود إليه لتأنس بضربه الوجيع، كما ترجع الفَراشَة إلى أقباس اللهيب.

المرأة تدرك ما في الرجل من المعاني، ولو كان من الخاملين، فكيف تصدّ عنه وهو من الأنبياء ؟

كانت حواء سمعت أن الله لم يخلق آدم إلا بعد أن دار بينه وبين الملائكة حوار طريف، فكيف يفوتها أن تنتفع بشهرته، وهي تعرف أن الشهرة مغنمٌ عظيمٌ، وإن اعتمدت على أضاليل وأباطيل ؟

وهل تقوم الشهرة بلا أصل ؟

إن آدم رجل، والرجولة من أعظم الأرزاق، فما زهدها فيه وهو من أمثلة العزة والجبروت ؟ وهل تنسى أنه صرعها فوق شط الكوثر ألوف المرات ؟

القوة هي سحر آدم، والضعف هو سر حواء، والوجود يقوم على أسس كثيرة ولكنها ترجع إلى أساسين هما القوة والضعف؛ والعشق العارم لا يقع إلا بين عاشقين مختلفين في العرض والطول، والدمامة والجمال، والقسوة واللين.

ومع هذا كان آدم هو البادئ بإعلان شوقه إلى حواء، وكانت حواء تنكر شوقها إليه. وتفسير ذلك سهل : فأسرع الناس إلى الاعتراف بالحق هم الأقوياء.

ويزعم شيث بن عربانوس أن آدم قال وهو يحاور تلك اللعوب :

أمـا والله لو تجديـن وجـدي لطِرت إلـيَّ خالعـة العـذار[1]

---

(١) كذلك ورد هذا البيت في كتاب شيث، ورواية الأغاني تخالف هذه الرواية في الكلمة الأولى من الشطر الثاني.

وقد فات آدم أن حواء ضعيفة، والضعف يتسلم بالرياء.

والقول الفصل أن آدم قد انتهى إلى حقيقة لا تحتاج إلى برهان، وهي صدور الأهواء عن الأجساد قبل صدورها عن الأرواح، لأن الجسد أداة الروح، ولأنه يحفظ قواها كما تحفظ الكأس سر الرحيق.

ثم ماذا ؟ ثم التفت آدم إلى وحي النبوة فقال :
« لم أكن أدرك تكاليف النبوة حين أراد الله أن أكون من الأنبياء، فقد فهمت أول الأمر أن النبوّة لا تصح إلا لمن يقف موقف الراعي من الرعية، وليس في الجنة جنود وأتباع يحتاجون إلى من ينظر في شؤونهم بعين المدبِّر الحصيف... ثم عرفت أن الله جعلني نبياً لحكمة سامية : فحواء شخصٌ فرد، ولكنها مؤلَّفة من شخوص يعدّون بالألوف، بفضل ما يصطرع في جسدها وروحها، وقلبها وعقلها، من أشتات النوازع والأحاسيس... هي شخصٌ فرد، ولكن أوقاتي تضيق عن الطب لأهواء ذلك الشخص الفرد، فكيف أصنع لو أضيف إليها أفراد يحملون ما تحمل من أوقار النزق والطيش والجموح ؟ إنها تتعبني في الحوار، وأكاد أوقن بأن كل كلمة من كلماتها ترمز إلى شيء، فهذه الكلمة عتاب، وتلك الكلمة اتهام، وهذا اللفظ وعد، وذاك اللفظ إغراء، وذلك اللفظ تجريح... ومن عجيب الأمر في سياسة هذه الشقية أن خطبها لا يهون إلا حين تنطق، مع أن المفهوم أن نطقها في أغلب أحواله وعيد مخيف... أخطر ما تكون حواء حين تصمت، فعند ذلك أدرك أنها تضمر أشياء، وأنا أخاف أشد الخوف من النذير الصَّموت... لو أن الله جعلني نبياً في أمة كثيرة العدد لخفَّ الخطبُ وهان، فقد كنت أستطيع الاعتذار بالعجز عن رعاية الألوف من الرجال والنساء، ولكن الله جعلني نبيّاً على مخلوق تحار في رياضته العقول... من أي طريق أصل إلى اكتناه قلب حواء ؟ وكيف أؤدي الواجب في تهذيب تلك الشقية ؟ وهل نجحتُ في التخلق بأخلاق النبوة وأنا أروض تلك الفَرس الشَّموس ؟ الله

يعلم أني لم أُقصِّر ولم أُفرِّط، ولكن ما هذا البلاء الذي أعانيه ؟ واجب النبي أن يَهدِي الجميع في حدود ما يطيق؛ وقد يتلطف الله به حين يعجز عن هداية من يحب، لأنه يعلم أن الأحباب هم في الحقيقة أعداء؛ وهل يعرف مَقاتل المحب غير الحبيب ؟ كان يكفي أن أعجز عن هداية حواء فأُسلمها إلى الشياطين، ولكن البلاء كل البلاء أن هذه المرأة لا تكتفي بنجاتها من يدي، وإنما تريد أن تضلني فآكل معها الثمر الممنوع، وبهذا يصبح الهادي هو من الضالين ! إن نجحت حواء في اختتالي واختلابي فسأكون عِبرة لمن يأتي بعدي من الأنبياء... وهل أضمن حفظ مكانتي في التاريخ ؟ إنْ تطاول الزمان فسيقول قوم إن آدم شخصية خرافية أُريدَ بها تصوير انهزام الرجال أمام النساء. وهل يؤذيني أن يقال ذلك ؟ أنا أول ضحية بشرية إن هزمتني حواء، ومن حق من يجيئون بعدي أن يرتابوا في حقيقتي التاريخية. فالرجل الذي يعجز عن كبح المرأة لا يستحق شرف الوجود... وأنا أعيذ من تصل إليهم هذه الأخبار أن يسيئوا الظن بجدهم المظلوم، فليس عندي أوامر صريحة أتولى بها زجر حواء، ولست أعرف المصير إن عاقبتها بالقتل، فما لي صديق غير هذا المخلوق، والصديق الواحد جدير بالاستبقاء وإن تردَّى بالعيوب. من أخصب تخيَّر، وأنا في الصداقة مُجدب لا مخصب. فهل أُلام إذا استجزت المعصية طاعةً لمحبوب لا أجد غيره حين يضيع ؟ سأقرب الشجرة رعاية لحواء، وليصنع الله بنا ما يشاء... وماذا يريد الله ! أيريد أن نشاركه في السموّ المطلَق ؟ أيريد أن نتنزه كما تنزه عن جميع الشبُهات ؟ أين نحن من الله وهو قوة أزلية لا يعتريها نقص ولا خمود ؟ بأمر الله سأعصي الله فأقرب الشجرة مع حواء. سأعصيه بأمره وإن كان نهاني، فهو يعلم أن المخلوق المؤلف من أحلام وأهواء لا يعظم عليه العصيان »[1].

(١) هذه الوثيقة التاريخية تشهد بأن آدم ظل مدة طويلة في أسر القلق والخوف، ومنها نعرف أنه كان في عراك دائم بين عقله وهواه، وأن حواء لم تفتنه إلا بعد أن بذل في جهادها فوق ما يطيق.

وانخرط آدم في البكاء، فلم يوقظه غير حواء.

ـــ آدم، آدم، ماذا بك ؟

ـــ حواء ؟

ـــ نعم، حواء، هل فرغت من صلاتك ؟

ـــ أي صلاة ؟

ـــ صلاة الشكر، ألم تحدثني أنك من أجلها أردت الاعتكاف

ـــ لقد صليت صلاة لا تخطر لك في بال

ـــ هل صليت كما تصلي الملائكة ؟

ـــ أعظم مما يصلّون

ـــ وكيف ؟

ـــ ناقشتُ الله !

ـــ من ناقشَ الله هَلَك

ـــ قولي هذا لنفسكِ، يا حواء !

ـــ أحب أن أعرف كيف تكون المجادلات من ضروب الصلوات ؟

ـــ حين تكون شاهداً على شروق العقل

ـــ لا أفهم ما تريد أن تقول

ـــ أريد أن أقول : إن الله يكره لعباده أن يلوذوا بالصمت والجمود

ـــ ومعنى هذا أنه يحب أن نتكلم ونتحرك في كل وقت ؟

ـــ إذا أشار العقل

ـــ وما العقل ؟

ـــ أن تسكتي إلى الأبد الأبيد !

ـــ أتريد أن تتمتع بنعمة الكلام وحدك ؟

ـــ لأنني أشقى بنعمة العقل وحدي، ولأن الله لن يسأل غير « آدم » عن نزق « حواء »

ـــ وما رأيك في شجرة التين ؟

ـــ المرأة حين تولع بشيء لا تنفك تدور حوله ولو نهاها عنه الأنبياء

ـ وأنت نبيٌّ يا « آدم » ؟ لم يبق إلا هذا الزعم الطريف !

ـ إن صوت الله قرع أذنيك ولم تنتهي، فهل تسمعين صوت النبيّ المسكين ؟!

ـ ومتى نهاني الله عن الشجرة ؟

ـ كيف نسيت يا حواء أننا سمعنا ألف مرة هاتفاً يصيح :

« لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين »

ـ هو نداء موجه إليك

ـ إليّ وحدي ؟ وكيف ؟

ـ لأنك رجل !

ـ وإذن يكون من حقي أن أقرب الشجرة وحدي

ـ لن تذوق ثمرها إلا من يديّ

ـ وهل أذوق من يديك غير العلقم والصاب ؟

ـ إسمع يا آدم، إسمع : يظهر أنك أغلف القلب، وأنك في احتياج إلى من يزيل الغشاوة عن عينيك. ما هذا التمرد على الله؟ وما هذا العصيان ؟ مزيتك أنك رجل، ورجولة آدم رهينة بشهادة حواء، ولن أعترف لك بشيء إلا إن عصيت وغويت.

ـ ويقول الله : وعصى آدم رَبَّه فغوى ؟

ـ ومن أنت حتى تصل إلى أن ينالك بالغمز والتجريح ؟

ـ إسكتي، يا حواء !

ـ لن أسكت قبل أن أزلزل قلبك جزاءً بما احتكرت من دعوى الفضيلة والشرف والنبل؛ كأن سلوكي معك رذيلةٌ وضعةٌ وإسفاف. أنت تصور نفسك دائماً بصورة المظلوم وتنسى أنك في أغلب أحوالك من الظالمين.

ـ ومتى ظلمتك، يا حواء ؟

ـ حين تناسيت فضلي عليك، فأنا أُضرم أهواءك لتشعر بعنفوان

الرجولة الحق، وستموت حسيًّا ومعنويًّا يوم أعجز عن اغوائك. فيومذاك تعرف يا جاهل أن طيش حواء ليس بالمغنم القليل.

ــ كفى. كفى!

ــ لا، لا، لن أتركك أو تعترف بفضلي عليك

ــ أَمِنَ الفضل أن تزيِّني المعصية؟

ــ ما زيّنت لك شيئاً غير جميل

ــ وشجرة التين؟

ــ ما تهمني شجرة التين بالذات فسأحاول هدايتك إن امتنعت عن شجرة الجميز، لأملك نقل قلبك من مكان إلى مكان، لأطمئن إلى أنك بعافية تجعلك في طليعة الفحول، فما ينجو من كيد المرأة إلا العِنِّين أو المجبوب.

ــ أنت يا حواء شقية!

ــ وأنت يا آدم جهول!

ومرت لحظات صمت فيها آدم صمت الأموات، ثم ثاب إلى صحوة فأيقن أن نجاته من كيد حواء أمل عزيز المنال... ولكنه جمع قواه ليصدها عن الغواية بأسلوب لم يفكر فيه من قبل. فهل يصل إلى ما يريد؟

(للحديث شجون)

قبل أن تثور القواصف
فوق أثباج الكوثر*

ارتاح آدم إلى كيد حواء بعض الارتياح، وأدرك أن الرجل لا يعيبه أن يُفتن بالمرأة من حين إلى حين، على شرط أن يظل في الحدود التي لا تجرح كرامة الرجال.

وفطِن إبليس، لعنه الله، إلى أن آدم أخذ يؤوّل كيد المرأة ويقسمه إلى أقسام فيها المكروه والمباح... فطن إبليس إلى هذه الثغرة فجدّد من نشاطه واستأنف الوسواس فهتف : « هل ادلكما على شجرة الخُلد ؟.. هل أدلكما على شجرة الخُلد؟... ألا تسمعان؟ »

قالت حواء : سمعنا وسنطيع. وقال آدم : سمعنا ولن نطيع.

فغضبت حواء من جواب آدم واتهمته بالزهد في الخلود، وهو زهدٌ دميم، فما يليق بالرجل أن يضيع فرصة تنجيه من الفناء، ولو ارتكب في سبيلها ما لا يليق.

---

* نشرت هذه المقالة في العدد ٤٥٦ من مجلة الرسالة بتاريخ ٣٠ مارس سنة ١٩٤٢.

وغضب آدم من سفاهة حواء فقال : من أين عرف إبليس أن شجرة الخلد هي شجرة التين ؟ وعلى فرض أن كلامه صدق في صدق، فكيف يجوز أن نعصى الله لنظفر بالخلود ؟

إعلمي، يا حواء، أن الرزق والجاه قسمان : حرام وحلال، وأنا لا أقبل أن نُرزَق الخُلد عن طريق الحرام... إن اللقمة المسروقة تقف في الحلق لحظة، ثم تُزدرَد برفق أو بعنف. ومع هذا تبقي لها عقابيل تحزّ في القلب إلى آماد طوال، فكيف نستجيز الظفر بنعمة الخلود عن طريق العصيان ؟ وكيف نرضى أن نعيش أبد الآبدين في أسر الحرام الممقوت ؟

ـــ آدم، أنت أحمق !

ـــ لأني في الخُلد المكسوب بالعصيان ؟

ـــ لا، بل لأنك تجهل أن الخُلد أنفس وأثمن وأعز من أن تُتقى في سبيله الشُّبُهات

ـــ النص صريح في تحريم هذه الشجرة يا حواء

ـــ التأويل يلحق جميع النصوص

ـــ إذا وُجدت الغاية التي تبيح الممنوع من التأويل !

ـــ وأيُّ غاية أشرف من الخُلود ؟

ـــ إسمعي، يا حواء، إن الخُلد غاية شريفة ـــ كما تقولين ـــ ولكني أبغضه أشنع البغض، لأنه يوجب أن أعيش في صحبة عقلك الأجوف إلى ما لا نهاية له من الآباد... إني ضَجِرت، ضجرت، مع أن صحبتنا في الجنة قريبة العهد، فكيف أصنع إذا كتب الله عليَّ أن أُكون من الخالدين في جوارك يا حواء ؟

ـــ تغضب مني يا آدم وأنا أدعوك إلى الخُلد ؟

ـــ هو خُلدٌ حرام لا حلال... وما يليق بنا أن نعامل الله في كرمه بغير الامتثال

ـــ أتصِفُ الله بالكرم وهو يبخل علينا بشجرة لا يساوي حطبها درهمين ؟

ـــ ألم أقل : إن الله يختبر قُوانا النفسية بتحريم تلك الشجرة ؟ وإذا عجزنا عن كبح النفس في البعد عن شجرة لا يساوي حطبها درهمين، فكيف يكون المصير لو نُهينا عن شجرة مصوغة من عيون العذارى وخدود الملاح ؟ المعصية بغيضة يا حواء، لأنها تضيفنا إلى أهل الكفران، وما يجوز لمن يعيش في مثل هذا النعيم أن يفكر لحظة واحدة في عصيان المنعم الوهاب.

ـــ الله منعم وهاب، وهو يبخل بشجرة لا يساوي حطبها درهمين[1] ؟

ـــ الآن عرفتُ أنك امرأةٌ سليمة الأعصاب والحواسّ إلى أبعد الحدود

ـــ وكيف ؟

ـــ لأنك تنكرين الجميل، والمرأة لا تنكر الجميل إلا حين تكون في عنفوان الصحة والعافية

ـــ وإذن ؟

ـــ وإذن أعصي الله من أجلك يا حواء !

ـــ فتأكل من شجرة التين ؟

ـــ وأترك طبعات على هذه الخدود المقبوسة من جمر الوجود

ـــ تحبني، يا آدم ؟

ـــ أحب المرأة الحلوة الجميلة التي زلزلتْ فؤادي. أحب المرأة التي نقلت قلبي من مكان إلى مكان. أحب الغادة اللعوب بالعقل والروح. أحبك يا حواء حبًّا أمتنَ من الصدق وأروح من اليقين. أحبك يا حواء حبًّا سيُفسِدُ ما بيني وبين ربي، إلا أن تشاء إرادته السامية أن أتقرب إليه بعبادة الجمال... ولعله يشاء !

---

(١) هل كان في جنة آدم وحواء دراهم ودنانير ؟ إن هذا يؤيد الطعن في صحة كتاب « شيث ».

ــ وإذا لم يشأ، فماذا تصنع ؟
ــ آكل من شجرة الخلد، لأحمي هذا الجبين من الأفول
ــ بالعصيان ؟
ــ هنا المشكلة يا حواء، فما يُسيغ ذهني أن ينهانا الله عن رعاية الجمال
ــ أراك اهتديت !
ــ وأراني ضلِلت !
ــ أفِقْ، يا نَشْوان
ــ إن جاز للموقوذ بسكْر الجمال أن يُفيق !
ــ تحبني يا آدم ؟ تحبني ؟
ــ أحب النار التي صهرت روحي، ولن أطمئن إلا يوم أنهشك يا حواء لتعودي نقطة من دمي
ــ ما هذه الوحشية ؟
ــ أيّ وحشية ؟ ألم تُؤخذي من ضلعي ؟
ــ أنا من ضلعك أُخذتُ يا كذّاب ؟
ــ إسألي الملائكة، فعندهم الخبر اليقين
ــ ولهذا جئت جميلة ؟
ــ وأجمل من الأفعى الملتوية على الشجرة الزهراء !
ــ أُراك تبغضني يا آدم !
ــ هو ذلك : فأنا أبغض العيون الجوارح، وأبغض الجبين الوضاح، وأمقت القد الرشيق، وأستعيذ بالله من السحر المتموج فوق الثنايا البيض
ــ ثم ماذا ؟
ــ ثم أكره الصوت الذي يُشبه وسواس الحُليّ فوق النحور، والذي يفوق غمغمة الكأس عند فورة الرحيق
ــ ثم ؟
ــ ثم أثور على التفاتة الجيد عند العتاب

ـــ ثم ؟

ـــ ثم أبغض حواء لأنها حواء !

وبعد الأنس بقُبلتين محرقتين مضى آدم لشهود حفلة الطيران، وهي حفلة موسمية كانت تقيمها الحمائم والبلابل والعنادل في « غابة الصنوبر » لتروض أفراخها على النهوض والتحليق. ويحدثنا شيث أن حفلات الطيران هذه كانت تجتذب جميع سكان الجنة بلا استثناء. وقد نص على أن السباع كانت تراها عجباً من العجب، لأنها تشهد بتنوع المواهب، وإلا فكيف جاز أن يقدر الطائر الضعيف على ما يعجز عنه الأسد الصوّال ؟

مضى آدم وحده لشهود حفلة الطيران، وهو مبتسم جذلان، فقد أعفى نفسه من الحيرة في قرب شجرة التين، وأسلم مصيره إلى خالق الأنوار والظلمات، فللأقدار أن تصنع به ما تشاء.

أما حواء فشعرت بحزن وانقباض حين رأت آدم لا يمانع في قرب الشجرة المحرّمة، ولهذا قلّت بشاشتها لشهود حفلة الطيران، وكذلك آثرت الاعتكاف لتنظر فيما هي مقبلةٌ عليه... فما الذي تأذّت به حواء وقد بلغت من ختل آدم فوق ما كانت تريد ؟

نظرت حواء فرأت أن الشقاق حول الشجرة المحرمة كان فرصة لشغل آدم بزوجته شغلاً غير مقطوع، والمرأة يرضيها ويسرها ويشوقها أن يعيش الزوج وهو بها مشغول، فكيف تكون الحال بعد أكل الثمرة الممنوعة حين يصبح جميع ما في الجنة حلالاً في حلال ؟

ونظرت فرأت أن الجدال حول الشجرة المحرمة ألانَ لسان آدم وعلّمه الحوار بأساليب لا تخلو من البراعة والظرف، وقد تصل إلى السِّحر في بعض الأحيان، فكيف المصير إذا تساوت قِيمُ الأشياء واستغنى آدم عن الجدال ؟

سيكون الصمت من نصيب آدم حين تنعدم أسباب الخلاف، فكيف تعيش حواء مع رجلٍ صَمُوت ؟ وهل قلّ صمت آدم برغم ذلك الخلاف ؟ لقد كانت له تأملات طويلة ينسى بها ما حواليه حتى لتحسب زوجته أنه لا يشعر بأن لها من الوجود أي نصيب، فأي بلاء ينتظر حواء يوم تنقطع موجبات اللجاجة مع فارسها الجميل ؟

في تلك الحومة كادت حواء تنتقل من المعصية إلى الكفران، والعياذ بالله، فقد جاز لها أن تعترض على نظام الجنة، وأن ترى أنه لا يخلو من اختلال. والثورة النفسية تحيل النعيم إلى جحيم، وذلك ما وقعت فيه حواء.

نظرت فرأت أن الجنـة قليلة المحرمات، فهي قليلة الطيبات، وهل يستطيب الناس غير الممنوعات ؟

نظرتْ في هذا المعنى مليًّا ثم صرختْ :

أرى طِيبَ الحلال عليّ خُبثاً وطِيبَ العيش في خُبث الحرامِ

وهمّت باقتلاع شجرة التين لتحوّل الجنة إلى خراب يباب، فما كانت الجنة في نظرها غير تلك الشجرة الممنوعة، وإذا اقتلعت تلك الشجرة فسوف يرى الله أن عنايته بخلق الجنة ذهبت أدراج الرياح !

ولكن شجرة التين التي لا يساوي حطبها درهمين أعجزت حواء فلم تستطع اقتلاعها برغم ما بذلت من الجهد « المحمود » فنكصت على عقبيها وقد نال منها الإعياء ما نال.

وكان المفهوم أن تخجل من الهزيمة أمام شجرة التين، وأن يزيد حقدها على الله، ولكنها فرحت حين عرفت بالتجربة أن « شجرة الشرّ » قوية الجذور، وأن الأمل في اقتلاعها ضعيف، وتمنّت أن تصبح الجنة وفيها لهذه الشجرة أمثال وأمثال.

ذلك ما كان من أمر حواء، فما أمرُ آدم وقد ذهب وحده لشهود حفلة الطيران ؟

رأى جميع المتفرجين يتحدث بعضهم مع بعض، وهاله أن يرى الثعلب يناجي أنثاه بجذل وانشراح، كأنه يدرك الدقائق من طيران أفراخ العندليب، ورأى الأفعى تخاطب الأفعوان بعبارات فهِمَ منها أن حفر الجُحر في أصل الشجرة لا يقل خطراً عن بناء العش في أعالي الأغصان.

أراد آدم أن يتكلم، ولكن مع مَن ؟

لو كانت حواء حاضرة لحدثها عن ذكائه في استكشاف ما بين الخشب والماء، فقد اهتدى إلى أن من يمتطي الخشبة لا تهوله أمواج الكوثر في كثير ولا قليل، وهل يكون امتطاء الهواء أوثق من امتطاء الماء ؟[1]

لو كانت حواء حاضرة لقال لها وقال، ولكن أين حواء ؟
هنا أدرك آدم أن الحياة بلا رفيق لفظٌ بلا مدلول
ألم يكن يجرّد من نفسه شخصاً يحاوره حين يعتكف ؟
ألم تكن أشعاره تبدأ بعبارة « يا خليليّ » أو « يا صاحبيَّ » كأنه يرى بضوء البصيرة أنه يحتاج إلى عدد من الأصحاب والخلان ؟
ألم يلاحظ الله حين اختصه بالنطق قد أوحى إليه أن حياته لن تكون بلا رفيق أو رفاق ؟!
أين حواء ليبادلها الأحاديث ؟ وأين ماضيه في الطيران بأجواء الحقائق والأباطيل ؟
إلى حواء، إلى حواء، إلى حواء !!
فماذا يرى آدم وماذا يسمع ؟

---

(١) من هذا نعرف أن آدم سبق نوحاً إلى اختراع السفينة، وإن لم يسبقه إلى ربطها بالدسر والألواح.

يرى فتاةً خامدة بجوار شجرة التين، ويسمع أنيناً يذيب لفائف القلوب.

ــ حواء !

ــ ...

ــ حواء ؟

ــ ...

ــ حواء ؟

ــ آدم ؟

ــ نعم، آدم، ماذا بك يا حواء ؟

ــ لا شيء، ولكن أين كنت ؟

ــ كنت أشهد حفلة الطيران

ــ ورأيت عدل الله ؟

ــ فيماذا ؟

ــ في تزويد الطير بنعمة لن نظفر بها أبداً، فهو يطير عن هذه الجنة حين يشاء !

ــ وهل مللت الثواء بالجنة يا حواء ؟

ــ أي جنة تريد ؟ أتريد هذا العيش الرتيب، العيش الذي لا يحرّم فيه غير طعامٍ واحد ؟ العيش المملول، العيش الذي يقدّم فيه التفاح بلا حساب ؟

ــ وما عيب هذا العيش يا حواء ؟

ــ عيبه أنه حلال في حلال

ــ وماذا تريدين ؟

ــ أريد أن يكون لي جموح يُغضب الله

ــ وماذا تستفيدين من غضب الله ؟

ــ أريد أن أشغله بنفسي

ــ لك الويل، يا شقية !

ـــ لك أنت الويل، يا بليد !

ـــ حواء، أنت حمقاء !

ـــ الأحمق هو الذي يشهد حفلة الطيران ولا يستفيد

ـــ وماذا يستفيد المرء من شهود حفلة الطيران ؟

ـــ ألم تر مئات الأفراخ من الحمائم والبلابل والعنادل والصقور والعقبان وهي مجرَّحة بسبب العنف في التمرين على الطيران

ـــ نعم، رأيت، ثم رأيت !

ـــ تقول إنك رأيت، فهل فهمت أن تلك الجراح هي سرّالقدرة على التحليق ؟

ـــ وإذن ؟

ـــ وإذن نجرَّح مرة أو مرتين أو مرات...

ـــ لماذا ؟

ـــ لنطير في أجواء الرشد والغيّ والهدى والضلال

ـــ إن كنت تريدين شجرة التين فلن أقرب شجرة التين

ـــ حدثني أحد الملائكة...

ـــ وتحدثك الملائكة يا حواء ؟

ـــ وتحدثك أيضاً ولكنك لا تسمع !

ـــ وماذا قالت الملائكة ؟

ـــ قالت إن الله أخبرهم أنه سيجعل في الأرض خليفة، وأنهم كرهوا أن يجعل في الأرض من يُفسد فيها ويسفك الدماء

ـــ وبماذا أجاب الله ؟

ـــ قال : إني أعلم ما لا تعلمون

ـــ ومعنى ذلك ؟

ـــ معناه أننا سنصير إلى الأرض

ـــ بعد هذا النعيم ؟

ـــ وهل نحن في نعيم ؟

ــ اتقي الله يا حواء
ــ اتق الله أنت

* * *

ــ الأرض، الأرض، الأرض !!!
ــ الأرض، الأرض، الأرض !!!

كذلك دار ذهن آدم وحواء بهذه الكلمات، واشتهى آدم واشتهت حواء رؤية ذلك العالم المجهول.

ــ إلى شجرة التين، يا آدم
ــ إلى شجرة التين، يا حواء
ــ ولكن احذر من أن تقول إني أغريتك !
ــ لم يغرني غير العينين النجلاوين، والخدين الأسيلين، والثغر المعطَّر بأنفاس الرحيق
ــ إعترف صراحة بأني ما أغويتك ولا أضللتك ولا زينت لك العصيان
ــ أعترف بأن حواء لا تُسأل عما يجني قدها الرشيق
ــ ولا خصرها الأهيف ؟
ــ ولا جيدها الأغيد !
ــ ولا ثغرها الرَّشوف ؟
ــ ولا طرفها الكحيل !
ــ ولا تثنيها وهي تتخطر فوق شط الكوثر ؟
ــ ولا سحر اللون الذي يتموج بساقَيْها حين تتمدد فوق الأعشاب !
ــ ولا بلؤمها حين تثور ؟
ــ ولا بكرمها حين تطيع !
ــ آدم، آدم، أنت مخلوق نبيل
ــ معاذ الله أن أكون كذلك، فما يوصف الرجل بالنبل إلا حين يملك ما

يأتي وما يَدَع. وقد قلّت حيلتي في رياضتك يا حواء، فأنا بفضل هواك من الهالكين

ــ لن تهلك وأنا معك

ــ ولن أهلك إلا لأنك معي، فالرفيق الفاسد يجرّ صاحبه إلى الهلاك

ــ الله قدَّر أن يكون مصيرنا إلى الأرض، فما خوفُك وتلك إرادته السامية ؟

ــ للجنة أسوار وحدود وأنا أخشى أن تكون الأرض بلا أسوار ولا حدود

ــ عند ذلك تستطيع أن تفر مني حين تشاء.

ــ أنا في الجنة مقهور على صحبتك بفضل الأسوار، وسأكون في الأرض مقهوراً على صحبتك بفضل الأهواء، والفرق بين الحالتين بعيد

ــ لك أن تتحرر من هواي

ــ لو أصبحتِ تراباً يا شقية لكان من واجبي أن أستاف ذلك التراب

ــ تحبني يا آدم ؟

ــ أحب اللسان الذي يتلجلج بفم الحية النضناض

ــ أنت وقح !

ــ الوقاحة لن تكون إلا من نصيب الجمال النشوان !

ــ النشوة العارمة لم تعرف إهاباً غير إهابك

ــ ولهذا أخضع للشهوة وأطيع

ــ إذن تأكل من شجرة التين

ــ وأستبيح المعصية في سبيل الجمال

ــ خذ هذه التينة يا آدم

ــ إبدئي بنفسك

ــ هذه واحدة وثانية وثالثة ورابعة وخامسة، فهل وقع شيء ؟

ــ لم يقع شيء !

ــ وإذن يكون التين من الثمر المباح

ـــ عند ذلك مدّ آدم فالتهم ثمرة التين وهو يرجو أن يكون مصيره مصير حواء، ولكن الجنة زُلزلت من جميع الجوانب فأدرك أن الله لا يقيم وزناً لغير هفوات الرجال.

(للحديث شجون وشجون).

احزان الأسود وأفراح القرود
يوم فضيحة « آدم » و « حواء »*

سارت الأمور إلى ما شاء القدَر أن تسير إليه، وذاق آدم لأول مرة لذعة الندم الأليم، فقد كان يملك زجر حواء عن قرب شجرة التين، لو قُدِّر له أن يتماسك فلم يخضع لسلطان حُسنها الوهَّاج...

وانزعجت حواء لما أصاب الجنة من زلزال، فعرفت من أخطار الخطيئة ما لم تكن تعرف، وأدركت أن المزاج في تفسير الحرام والحلال عَبَثُ أطفال.

ــ آدم، لا تبتئس، فقد عجّل الله بالعقوبة، ولم يبق إلا أن نأنس بالاطمئنان

ــ وما هي العقوبة التي عجّل بها الله يا حواء ؟

ــ هي ما أصاب الجنة من زلزال، فقد هدأت العواصف والقواصف، وعاد كل شيء إلى قراره المألوف

ــ الزلزال الخطر هو البلبلة التي تثور في صدري، وما أحسبني سأستريح، وهل أنت مطمئنة يا حواء ؟

---

* نشرت هذه المقالة بتاريخ ٦ إبريل سنة ١٩٤٢ في العدد ٤٥٧ من مجلة الرسالة.

ــ لا، وإنما أردت أن أهوّن عليك وقْع ما نحن فيه، فما زال قلبي يرتعد من هول الصدمة، وليتني متُّ قبل الخطيئة وكنت نسياً منسيًّا!

ــ أرأيت يا حواء عواقب الإصاخة لأقوال المفسدين ؟ ألم أنهكِ عن صحبة الحية ؟ ألم أخوّفك من الاستماع إلى إبليس ؟

ــ ليتني أطعتك ! ليتني أطعتك !

ــ وهل تنفع شيئاً ليت ؟

ــ في ليت تعزيةٌ للخائبين، فلنتعزّ بها إلى حين !

ــ وفي أثناء هذا الحوار كان آدم يلاحظ أن أسراباً من الطير والحيوان تنظر إليه وإلى حواء باستغراب ثم تنصرف، فما الذي جدّ عليه وعلى حواء بعد الزلزال حتى يقع ذلك الاستغراب ؟

وحانت من آدم التفاتة فرأى سوأة حواء بادية، وأطرق فرأى سوأته قد انكشفت والعياذ بالذوق، وكذلك أدرك أن أسراب الطير والحيوان قد هالها أن يمسي آدم وحواء وهما في حال تسر العدو وتحزن الصديق.

كانت الفاجعة أعنف مما يتصوره الخيال، فقد فُطر آدم على الحياء، ألم يكن أول مخلوق ستر ذلك الشيء ؟ أما الكلام عن حياء حواء، فهو حديثٌ مُعاد، فما استطاع أحد من سكان الفردوس أن يتوهم صورة المنطقة المحرمة في جسمها الجميل.

ــ أتصنع المعصية كل هذا يا آدم ؟

ــ وأشنع من هذا، فقد يعاقب العصاة بالقتل

ــ الفضيحة أبشع من القتل

ــ أنا لا أراها كذلك، فالقتل أخطر وأعنف

ــ الرجل يُقتل بالسيف، والمرأة تُقتل بالفضيحة، فأنا وحدي المقتولة بعقوبة اليوم

ــ وما المخرَج يا حواء ؟

ـ نخصّف على هاتين السوأتين من ورق الجنة، إلى أن يقضي الله في أمرنا بما يشاء

* * *

لا موجب للاطالة في تصوير جزع آدم وفزع حواء مما صارا إليه، فالوصف لا يحيط بصورة الحزن الذي يساور النفس النقية حين تسقط أول مرة، فهي تتخيل أن شبح الفضيحة يلاحقها في كل طريق، وأن الموجودات كلها عيون تنظر إليها باحتقار وازدراء، ولا كذلك النفس الخبيثة، فهي لا تتأثر بالفضيحة إلا بمقدار ما يتأثر الصخر الأصم بهبوب الريح.

كان آدم على فطرته الأولى يوم اقترف ما اقترف، وكان وحيداً في بلواه، فلم يجد من أصدقاء السوء من يهوّن عليه مصيبة العصيان.

وحواء ؟ وحواء ؟

كانت زهرة نضيرة لم تسمع بأن في الوجود لوافح ترزا الأزهار بالذبول.

وهل كانت حواء تجدّ وهي تدعو رفيقها إلى قرب الثمر الممنوع ؟

إن شيث حدثنا أن تمردها على الأوامر الربانية لم يكن إلا فنًّا من فنون الدلال. ولعل هذا هو السبب في أن الجنة لم تُصب بأذىً بعد أكلها من شجرة التين، وإنما وقع ما وقع حين هفا آدم، لأنه رُزق من العقل ما يكفي للتمييز بين المحرَّم والمباح.

وزاد في هم حواء عرفانُها بخطورة النزق بعد الذي كان، فصارت تصرخ من وقت إلى وقت صراخاً يصل إلى مسامع سكان الفردوس بأعنف مما يصل صوت المظلوم إلى آذان القضاة العادلين... وكذلك لطف الله بحواء، فأمر ورق الجنة أن يكون عندما تريد ليحميها من فضول العيون.

لا موجب للاطالة بتلخيص الصفحات التي دوَّنها شيث ابن عربانوس في هذا المقام، فما نطيق ولا يطيق القراء مواجهة ما انطوت عليه من أحزان وكروب، فلننظر كيف تسامع سكان الجنة بفضيحة آدم وحواء في لحظات.

في لحظات ؟ وكيف ؟

كان جمهور أهل الجنة في ذلك الوقت جمهوراً قليل الأهمية من الوجهة العدَدية؛ وللجماهير الصغيرة محاسن وعيوب، فمن السهل أن نكوِّن رأياً عاماً في الجمهور الصغير بخطبة أو خطبتين وأن نروضه على الفضائل المنشودة حين نشاء بأيسر عناء، ولكن من الصعب أن نصدّه عن تسمّع الأخبار السيئة، فهو يُقْبل عليها بشهية عجيبة، وهو يجد لذة في مضغ أحاديث الإفك والبهتان، وقد يتزيّد فيضيف المآثم إلى الأبرياء، ليظفر بالقوت المحبوب وهو الاغتياب، فما يطيب للرجل الحقير أو الجمهور الصغير غير الخوض في الأحاديث التي تشوّه أقدار الأكابر من الرجال !

وعلى هذا وصلت أخبار آدم وحواء ـــ أخبارهما المزعجة ـــ إلى جميع سكان الجنة في لمحات معدودات، وصار الحديث عن مصيرهما الفاجع زاد الألسنة في كل مكان.

فكيف تلقَّى الفردوسيون ذلك النبأ الفظيع ؟
انقسموا إلى فريقين : فريق الجازعين وفريق الشامتين
فمن الذي جزِع ؟ ومن الذي شمِت ؟
جزع الأسود، وفرح القرود، ولذلك حديثٌ يستحق التسجيل :

لم يكد يتسامع الأسود بفضيحة آدم حتى صاموا عن الطعام حزناً لبلية ذلك المخلوق النبيل؛ ثم اجتمعوا في « غابة العَرِين » ليسمعوا خطبة كبيرهم غَضَنْفَلُوث، وقد خطبهم فقال :

« سُجَرائي وأشبالي

ترامتْ إليَّ وإليكم أخبار الفضيحة التى رُزئ بها آدم، وقد جزعتُ لها كما جزعتم، برغم اختلاف الجنس؛ فنحن نمشي على أربع وهو يمشي على اثنتين، وقوّتنا بالظفر والناب، وقوّته بالقلب واللسان؛ ولكن هنالك آصرة تجمع بيننا وبين ذلك المخلوق، وهي الكرامة الذاتية، فهو يأبى الضيم كما نأباه، وهو يُزهَى ويختال كما نُزهَى ونختال. ولست أعرف قيمة شجرة التين حتى أحكم له أو عليه، فنحن لحميُّون لا نباتيون، ومن الصعب أن ندرك ما في التين من دواعي الاشتهاء، وقد حلّ به ما حل، وذاق من علقم الفضيحة ما ذاق، وسيقضي الله في أمره بما يشاء، فهل ترون من الجرأة على الله أن نعلن الحداد لمصيبة آدم المظلوم ؟ »

أحد الأسود : أنحزن لمصيبة مخلوق عصى الله ؟

غضَنْفَلوث : إذا كان مخلوقاً كريماً، وآدم مخلوقٌ كريم، فهو وحده الذي يستتر حين يلامس أنثاه، وما رأيته أبداً في موقف ينافي الأدب والحياء.

أسدٌ آخر : وكيف نجيب إذا عدّ الله حزننا لآدم ضرباً من العصيان ؟

غضنفلوث : الله أكبر من أن يستظهر على عباده المذنبين بشماتة حيوان.

أسد ثالث : العطف على المذنبين إغراءٌ بالذنوب.

غضنفلوث : هنا دقيقة تخفى عليك، وهي أن العطف على المذنب يجتثّ من صدره بذور العصيان، ويضيفه إلى أهل الطاعة والامتثال.

أسد رابع : نحن مع الله في التنكيل بالمجرمين.

غضنفلوث : ومن نحن حتى نشارك الله في الجبروت ؟

أسد خامس : نحن أسود.

غضنفلوث : والأسود تحفظ الأدب مع الله فتترك له التفرد بالثواب والعقاب.

أسد سادس : لا يجوز العطف على مخلوق خدعته أنثاه.

وهنا انبرتْ لَبْولوث زوجة غضنفلوث فقالت في زئير يوقظ الأموات : « لعلكم تريدون التعريض بحواء، فهل تعرفون حواء ؟ إسألوني أخبركم : لقد كانت تجيء من لحظة إلى لحظة لتداعب الأشبال بأناملها اللطاف. وكنت أقدر أول الأمر أنها تفعل ذلك بسبب حرمانها من النسل، ثم عرفت أنها مفطورة على الرفق والحنان، وأنها لا تعيش إلا في ظلال الرفق والحنان... ويلي عليك يا حواء، فما رأيت أرخم منك صوتاً، ولا أنضر وجهاً، ولا ألطف مِشية ! كنت أنظر إلى نهديك الكاعبين فأعجب وأطرب وأُشاق، ما أجملَ نهديك يا حواء ! وما أشد جزعي حين أتذكر أنك لم تُرزَقي طفلاً يباغم حَلَمَتَيْك في جذل وانشراح ! وهل أنسى أن حواء أرشق مخلوقة تمشي على اثنتين ؟ لقد كان تثنيها وهي تتخطر فوق شط الكوثر يخلع قلبي ».

غضنفلوث : حواء جميلة إلى هذه الدرجة ؟

لبولوث : وأجمل من الغزال المكحول بمرود السحر والفتون.

ــ عطف الأنثى على الأنثى معروف !

ــ وتحامُل الذكر على الأنثى لا يحتاج إلى تعريف... ويلي عليك يا حواء ! أأنت تُفضَحين بين سكان الفردوس فضيحة جديدة ؟

ــ وهل كانت لحواء فضائح قديمة ؟

ــ من يومها وهي فضيحة الفضائح، فمشيتها فضيحة، ونظرتها فضيحة، ونبرتها فضيحة، ودلالها فضّاح فضّاح فضّاح. ويلي عليك يا حواء، ويلي عليك يا أختي !

ــ يظهر أنك مفتونة بحواء !

ـــ وكيف لا أُفتن بأنثى تفردت بالجسم الأملس إلا بعض شعرات. ولو جازت الغيرة على مثلي لأصبحت من الهوالك.

ثم تعكّر هذا الحوار الرقيق بأصوات غليظة وصل صداها البغيض إلى ساحة العرين، فما تلك الأصوات ؟

تلك أصوات القرود وقد شمتوا بآدم وحواء، فكانوا يثبون إلى الأشجار ثم ينزلون، في انجذاب يشهد بأنهم صاروا من الفرح مجانين، ثم بدا لهم أن يضعوا أخشاباً في الكوثر ليركبوها، كما كان يصنع آدم وهو يداعب حواء.

وسمع الأسد الأكبر بهذا الضجيج فأقبل يعنّف شيخ القرود.

ـــ ما هذه الضجة، أيها القرد ؟

ـــ نحن نحتفل بعدل الله

ـــ وما ذلك العدل ؟

ـــ هو الحكم على آدم بما هو له أهل

ـــ ما خطر ذلك الحكم الذي استوجب أن تقيموا من أجله هذا الاحتفال ؟

ـــ لقد كُشِفت سوأة آدم، ولله الحمد !

ـــ إن سوأة آدم من أمام، فهو يسترها بلا عناء، وسوأتُك من خَلف أيها القرد، وستظل إلى الأبد وأنت مفضوح، لأنك شمتّ بآدم المظلوم

ـــ كيف يكون مظلوماً وقد عصى الله ؟

ـــ ذلك شرف لن تناله أبداً. لأنك ضعيف

ـــ وهل تحتاج المعصية إلى قدرة ؟

ـــ نعم، ولأجل هذا سأعصي الله كما عصاه آدم

ـــ فتأكل من شجرة التين ؟

ـــ أي تين يا قرد ؟ إن لي في العصيان مذهباً لا يخطر للقرود في بال

ـــ وما هو ذلك المذهب ؟

ـــ هو أن أبطش بكم جميعاً في لحظة واحدة فأريح الوجود من وجوهكم القباح

ـــ أنت إذن لا تخاف الله ؟

ـــ وكيف أخاف من يسمح بأن تكون للقرود دولة ؟ أنا كافر بالله، كافر، كافر، إن جاز عنده أن تقوم دولة للقرود أو أشباه القرود؛ ففضوا هذا الاحتفال السخيف، وعودوا إلى حظائركم صاغرين، وإلا نكلت بكم أشنع تنكيل.

ـــ وهل صنعنا شيئاً يعاب ؟

ـــ إن الشماتة إثمٌ حقير وخسيس، وهي لا تقع إلا من الأوشاب، فانزووا أيها القرود قبل أن يحل عليكم غضبي، فأنتم أحقر من أن تبوءوا بغضب الله، ولعله منحني من الشراسة ما منح لأؤدب ما يجلّ عن تأديبه من القرود والثعالب والذئاب.

* * *

حين وقع الزلزال في الجنة نظر رضوان فرأى الحية تزحف بسرعة تفوق المألوف من زحفها الممقوت، فأدرك أن عليها جانباً من المسؤولية، فمنعها من الخروج إلى أن تنجلي الأمور. ونظر فرأى إبليس يهرول ليقتحم باب النجاة، فردّه على عقبيه إلى أن يأذن الله بأن يكون من الناجين.

ثم سُمع هاتفٌ يصيح :

ـــ ماذا تستفيد يا آدم من الاختباء في تلك الألفاف ؟[1]

ـــ لأنجو من حسابك يا مولاي

---

(١) إشارة إلى ما جاء في كتاب « شيث » وما جاء في « التوراة » من أن آدم وحواء اختبئا في ألفاف الأشجار حياء من الله بعد انكشاف الستر عن السوأتين المجهولتين.

ـــ وكيف تنجو من حسابي، وأنت جان أثيم ؟

ـــ لك الأمر من قبل ومن بعد

ـــ ولهذا أدعوك إلى الوقوف غداً في ساحة العدل، فأحضر من تريد من الشهود، ومن تشاء من المحامين، ليرتفع اللبس في تقدير ما لك وما عليك

ـــ أنت الشاهد وأنت الوكيل، فاقض بعدلك ورحمتك ما أنت قاض

ـــ هو ذلك، ولكني أريد أن أقيم بنفسي أول محكمة في الوجود

(للحديث شجون)

اجتماع الملائكة
في مسجد الفردوس
للتحدث في نكبة آدم الجديد

سمع الملائكة بما صار إليه أمر آدم، وعرفوا أنه سيقدَّم للمحاكمة بلا تسويف، وترامَى إليهم أنه قد يتخذ منهم شهوداً على براءته من تهمة العصيان. فاجتمعوا بمسجد الفردوس ليتشاوروا فيما يليق بهم أن يصنعوه إن دُعي فريقٌ منهم للشهادة في ساحة العدل... فما الذي دار من الأحاديث في ذلك الاجتماع ؟

قبل ان ندون هذا المشهد نذكر ان شيث بن عربانوس يدير كلامه على اساس يخالف ما تعارف عليه جمهور المؤرخين، فهو لا يرى أن آدم صاحب حواء كان أول آدم، وإنما سبقته أوادم تعد بالمئات أو بالألوف. وسنرى كيف يحدثنا أن آدم حين هبط الأرض وجد فيها جماجم بشرية تشهد بأن الأرض سُكِنَتْ قبله بأمم لا يعرف أخبارها غير علام الغيوب.

نشرت هذه المقالة في العدد ٤٥٨ من مجلة الرسالة بتاريخ ١٣ إبريل سنة ١٩٤٢.

وقد هالني هذا الرأي، فمضيت أستفتي المؤلفات الإسلامية لأعرف حظه من الصحة أو البطلان، فماذا وجدت ؟

رأيت من يحكم بأن في قول الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » دليلاً على أنهم رأوا قبل ذلك أجناساً آدمية تفسد في الأرض وتسفك الدماء. ورأيت من يجعل « الخليفة » في قوله تعالى : « إني جاعل في الأرض خليفة » آدمَ جديداً يخلف الأوادم القدماء[1].

ومع أن هذه الأقوال لا تستند إلى نصّ قطعيّ الثبوت والدلالة ــ كما قال أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار، رضي الله عنه وأرضاه ــ فهي تؤيد مذهب شيث بن عربانوس، أو تجعله مذهباً لا يتأثم الباحث من الاعتماد عليه وهو يقص أخبار آدم الرسول.

والحق ان عبارة القرآن وعبارة التوراة صريحتان في أن آدم صاحب حواء هو أبو البشر. وعبارة القرآن أصرح في هذا المعنى، فالمألوف في أسلوب القرآن أنه ينهي كل نبي عن الوقوع فيما وقع فيه من سبقوه. ولو أن آدم كان سُبق بأمم بائدة لقص الله عليه أخبارها كما صنع مع سائر الأنبياء، فلم يبق إلا أن نعدّ شيث بن عربانوس مسؤولاً عن القول بأن آدم صاحب حواء ليس أول إنسان شهد هذا الوجود.

ويظهر أن كتاب شيث كان معروفاً في بعض البيئات الإسلامية قبل أزمان طوال، فقد رأينا أبا العلاء المعري يقول :

جائــزٌ أن يكــون آدمُ هذا قبلــهُ آدمٌ علــى إثْــر آدم

(١) آدم في هذه العبارة ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل، فسنرى بعد قليل أن هذه اللفظة عربية الأصل.

ويقول :

وما آدمٌ في مذهب العقل واحداً ولكنـــه عنـــد القيـــاس أوادمُ

ويقول في شيء من الخُبث :

قال قومٌ ولا أديــنُ بمـــا قا لوهُ : إن ابن آدمٍ كابنِ عرسِ
جَهِلَ الناس من أبوه علــى الدهـر ولكنه مسمًّى بحـرس
في حديثٍ رواه قومٌ لقـــومٍ رهنِ طرس مستنسَخ إثر طرس

ولعل « الطرس » الذي عناه أبو العلاء هو كتاب شيث ابن عربانوس واسمه « تاريخ البشرية » وإن لم نجد فيه ذلك الاستهزاء البغيض.

وقد أسرف أبو العلاء في الغض من شأن آدم حين يقول :

قالـوا وآدم مثـلُ أوبـرَ، وابنُـهُ كبناتـه، جَهِـلَ امـرؤٌ ما أوبـرُ

وهو قول لا يعتمد على بينة ولا برهان. وأسخفُ منه زعم فريق من قدماء الهنود بأن آدم كان عبداً من عبيدهم ثم هرب إلى الغرب، ولم يَعد إلا حين أثقلته تكاليف الأبناء !

وبهذه المناسبة أقول : كان المرحوم مصطفى كمال زعم أن آدم وحواء من أصل تركيّ، وقد أزعجني هذا الزعم الفظيع، فكتبت إليه خطاباً أثبّت فيه أن آدم وحواء من أصلٍ عربيّ، بشهادة الأشتقاق؛ فآدم على وزن أفعل، من الأُدمة وهي السُّمرة المشبَعة بالسواد، وحواء على وزن فعلاء، من الحوّة وهي سمرة الشفتين، ثم رجّحت أنهما من أهل نجد، بدليل ما في أشعار آدم من الإقواء. وقد انتظرت أن يجيبني مصطفى كمال ـــ غفر الله له ـــ ولكنه لم يفعل. فسألت بعض الأتراك المقيمين بالقاهرة فاخبروني أن مصطفى كمال لم يكن يقبل الاطلاع على خطاب مكتوب بالحروف العربية بعد أن فرض على قومه جميعاً أن يكتبوا بالحروف اللاتينية.

ما لي ولهذا ؟ إنما أريد أن يعرف قرائي أن كتاب شيث يقوم على أساس القول بأن آدم سبقته أوادم، ليعرفوا كيف اشتجر الملائكة وهم ينظرون فيما صار إليه بعد العصيان.

في مسجد الفردوس

تَنادَى الملائكة للاجتماع في مسجد الفردوس، فحضر فريق وتخلّف فريق، وكانت حجة من تخلفوا أنهم أبدوا رأيهم في آدم قبل أن يُخلَق، فهم لا يحبون التدخل في أمر مخلوق شرس لا يرضيه إلا أن يكون الوجود منادح شقاق ونضال وصيال. وقد خلقه الله برغم رأيهم فيه، فليصنع الله به ما يشاء. فهو المنتقم وهو الغفور !

ورأى الذين حضروا أن يصلّوا قبل الكلام في قضية آدم، لتزداد نفوسهم صفاءً إلى صفاء، فيسلموا من أوضار التطاول والإسراف، فما يجوز أن يجلس أحدٌ مجلس القضاء إلا بعد الصلاة والقُنوت، وبعد التحرر من شوائب الأهواء !

أحد الملائكة ــ هل ترون ان يكون لهذه الجلسة رئيس ؟
ملك آخر ــ إنما هلك الآدميون بسبب الرؤساء.
ملك ثالث ــ كنت أحب أن تقول بسبب استبداد الرؤساء. أو تناحر الرؤساء، فالرياسة مأخوذة من الرأس، وهو في العرف مجتمع العقل، فمن الواجب أن يكون لكل جماعة رئيس !
ــ ولكن ما حاجتُنا إلى رئيس ؟!
ــ لينظّم الكلام عند اشتجار الجدال
ــ لا يحتاج المتكلمون إلى رئيس إلا حين تغلب عليهم شهوة الثرثرة... إن وجود الرئيس هو في ذاته شهادة بضعف المجتمع الذي يحتاج إليه، ولو أدّى كل مخلوقٍ واجبَه تأديةً صحيحة لتساوتْ أقدار

المخلوقين. ولن تنجح أمة إلا حين يصبح كل فرد من أفرادها وهو مرءوسُ لعقله ورئيسٌ على هواه. وقد حمانا الله من الأهواء فلن نحتاج إلى رئيس. وعلى هذا أرجو ان يدور الكلام بلا ترتيب ولا تنسيق، على أسلوب الغابات لا أسلوب البساتين.

ــ ماذا تريد ؟

ــ أريد أن يكون كلامنا طبيعيًّا على نحو ما تكون الغابة، ولا أريد أن يكون منسَّقاً على نحو ما يكون البستان، فالفطرة في الغابات أقوى من الجمال المصنوع في البساتين.

ثم دار الحديث على الصورة الآتية بلا تمييز بين الآراء[1] :

ــ أرأيتم كيف صحت فِراستُنا في آدم فعصى ربَّه وغوَى ؟

ــ تريد الرجوع إلى التاريخ القديم يوم حاورنا الله في خلق « آدم » ؟

ــ هذا ما أريد

ــ ولكن فاتك أن مضغ حوادث التاريخ عملٌ ضائع، فآدم خُلِق بالفعل، وهو شرٌّ موجود، أو خيرٌ عتيد، والمهم هو أن نحدد موقفنا بالنسبة إليه.

ــ نحن من نور وهو من طين

ــ ولكنه أحدثَ في الجنة زلزلة لن نستطيع مثلها أبداً، وستجعل له مكانةً في التاريخ

ــ تحسده على ذلك ؟

ــ ومن أحسد إذا لم أحسد آدم ؟ فنحن جميعاً موكلون بعدّ ما له وما عليه، مع أنه خُلِق من طين، فهل تكون للطين فاعلية يخفَى علينا سرها المكنون ؟

---

(١) معنى ذلك أن الحوار الآتي لن يكون دائماً بين شخصين، وإنما هو حوار مرسل يقول فيه كل ملك ما يريد، ومجموع أقوال الملائكة يصور في جملته آراءهم المختلفة في نكبة آدم الجديد.

ـــ إن تحقير الطين بدعةٌ أذاعها إبليس اللعين، ويكفي الطينَ شرفاً أنه أصل آدم.

ـــ وآدم مخلوقٌ شريف ؟

ـــ بالتأكيد

ـــ وبرغم العصيان ؟

ـــ أي عصيان ؟

ـــ الأكل من شجرة التين

ـــ إنما أراد الله أن يأكل من الشجرة المحرمة لنجد عملاً، ولو نزَّه الله آدم عن المعاصي لبقينا بلا أعمال. وهل يعيش القضاة والمحامون والشهود إلا بفضل انحراف الناس عن سواء السبيل ؟

ـــ إن رأسي يدور من هول ما تقول

ـــ وهل قلت غير الحق ؟ إن آدم هو مصدر الفاعلية في جميع أرجاء الوجود، ومن أجل ضلاله وهداه تُنصب الموازين

ـــ نحن مقبلون على متاعب جديدة بسبب آدم الجديد

ـــ وهل أنت راض عن الراحة التي عانيناها بعد انقراض آدم القديم ؟

ـــ شكراً لك، أيها الرفيق، فقد خطر في بالي مرةً أن الله قد يسرِّح جيوش الملائكة بعد انقضاء مهمتهم في مراقبة االسلالات الآدمية.

ـــ أخطأتَ أخطأت، فما كنا جنود شرطة ولا جنود استطلاعات، وإنما خُلقنا للتسبيح والتقديس.

ـــ خُلقنا للتسبيح والتقديس ؟ يظهر أنك لم تفهم السخرية الملفوفة في قوله تعالى : « إني أعلم ما لا تعلمون ».

ـــ وكيف سَخِر الله منّا بهذه العبارة ؟

ـــ حين عقّب بها على قولنا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك » فهو لا يرى التسبيح والتقديس أفضل من الإفساد وسفك الدماء، بدليل أنه سكت عما اتهمنا به الطبيعة البشرية.

تأدبْ أيها الملَك، فأنت في غفلة عما يعنيه صاحب العزة والجبروت، ولو قضيت دهْرك في الاستغفار لعجزت عن محو هذا التطاول الممقوت.

ـــ أريد أن أعرف كيف لا يكتفي الله بالتسبيح والتقديس ؟

ـــ وما حاجة الله إلى التسبيح والتقديس من أقوام لا تعتلج في صدورهم معاني الكفر والإيمان، والشك واليقين ؟ إنما يرضى الله عن تسبيح من يهتدي بعد ضلال، ويؤمن بعد كفران.

ـــ إن رأسي يدور من هذا التخريج.

ـــ سَلِم رأسك إن كان لك رأس، أيها الشرطيُّ الذي يريد الإقامة بمنطقة ليس فيها خلائق.

ـــ أنفهم من هذا أن البشر أفضل منا ؟

ـــ لك أن تذكر أن الله يعاقبهم بالانقراض، ثم يتلطف فيخلقهم من جديد، لحكمة سامية، وكيف يغيب عنك المعنى الذي استوجب خلق آدم الجديد في الفردوس ؟

ـــ كنت أحب أن أعرف هذا السر العجيب.

ـــ خلقه الله في الجنة ليأخذ فِكرةً عن النظام والترتيب والعدل، وليكون له مَثلٌ أعلى يدور حوله حين يقيم مملكته الجديدة في الأرض. ولو أن الله أنشأ الأوادم القديمة هذه النشأة لقلّ بغيُ بعضهم على بعض وسلموا من آفة الانقراض.

ـــ غضبة الله عليهم، فما كانوا إلا وحوشاً في ثياب ناس !

ـــ هل تذكر بعض أعمالهم القباح ؟

ـــ أعمالهم القبيحة تفوق العد والإحصاء، ولكني أرجح أن الله لم يعاقبهم بالهلاك إلا حين عاملوه بما لا يليق.

ـــ وكيف ؟

ـــ كانوا يضيفون إليه أوامر ونواهي لم ينزل بها وحْي، ولا صَدَرتْ عن شرع، ليسوموا رعاياهم سوء العذاب، باسم الله وهم كاذبون.

ـــ كما صنع آدم الجديد ؟

ـــ آدم الجديد لم يصل إلى ذلك الدَّرَك، فقد عصي الله عن جهل.

ـــ إنما عصاه عن حذلقة.

ـــ وما حذلقة آدم الجديد ؟

ـــ قال الله : « لا تقربا هذه الشجرة » فترك « هذه الشجرة » بعينها ثم قرب شجرة من ذات الجنس، وهو يتوهم أن في هذه الحذلقة ما ينجيه من العقاب.

ـــ إن آدم حيوان لئيم !!

ـــ وبلا عقل، فلو كان يعقل لأدرك أن الله لا تخفى عليه خافية من حِيل الفقهاء، وسنرى كيف يدافع غداً عن إثمه في ساحة العدل.

ـــ لا يَبعُد أن يرضى الله عن بلاغته وهو يصوّر الدميم بصورة الجميل.

ـــ الجمال في نظر الله هو الحق، وذلّ من يزعم أنه يستطيع مخادعة الله، هلك آدم القديم بسبب الحذلقة الفقهية، وسيهلك آدم الجديد بسبب الحذلقة الفقهية. وسنقول فيه كلمة الحق والصدق إن دُعينا للشهادة في ساحة العدل.

ـــ تذكر أنه صاحب حواء !

ـــ ماذا ؟

ـــ آدم الجديد هو صاحب حواء.

ـــ لا أفهم ما تريد أن تقول.

ـــ أريد أن أقول إن آدم لن يهبط الأرض إلا ومعه حواء.

ـــ وتظن أننا نزور الشهادة من أجل حواء ؟

ـــ أنا لا ادعو إلى تزوير الشهادة، وإنما إدعو إلى الترفق بمن يملك امرأة جميلة.

ـــ بهذا هَلَك بنو آدم الأول، فقد كان فيهم من يحالف أمةً تعادي

أمته من أجل وجهٍ جميل، والجمال سهم يصيب صدر الأسد الرابض في حمى العرين.

ــ وما رأيك في المَلك الذي نظّم باقةً من أزهار الفردوس ليتحف بها حواء ؟

ــ كان ذلك بوحي الله.

ــ إنما كان ذلك بوحي الجمال.

ــ هذا تخريج لا أرضاه.

ــ إنما هو حساب يساق إليك.

ــ الآدميون الأغبياء يهيمون بالجمال، فكيف يعاب علينا أن نهيم بالجمال ؟

ــ ومن أجل الجمال عصى آدم ربه طاعة لحواء، أفلا يستحق العطف ؟

ــ سأنظر في هذه القضية.

ــ العجيب أن تُخلَق بلا شهوات ثم تهيم بحواء، فما حال آدم المظلوم في حب حواء وهو مخلوقٌ موقَر بأوزار الشهوات ؟

ــ نهاه الله عن الانخداع لحواء وما نهاني.

ــ كان الظن أن تفهم أن النهي لا يوجه إلا لمن تغيب عنهم دقائق الأدب الرفيع.

ــ أتتّهم الملائكة بالغباوة؟

ــ أتهمك وحدك.

ــ أنا ملكٌ مِثلك.

ــ لن تكون مثلي إلا حين تعترف اعترافاً صريحاً بأن الجمال يزيغ البصائر والعقول.

ــ ولن أعترف إلا إذا سمح جمهور الملائكة بأن أتهم الله بالغَرَض.

ــ ماذا تريد، يا زنديق ؟

ــ أريد القول بأن الله خصّ حواء بأشياء.

ـ لتحلو في عيني آدم، لا في عينيك.

ـ أمركم عجَبٌ من العجب، أنتم تعرفون أن الجمال في ذاته شريعة أزلية، ولا ينظر إليه إلا أصحّاء القلوب، كالشمس لا ينظر إليها إلا أصحاء العيون، ونحن مطالبون بالنظر إلى جميع ما في الوجود، لنزداد يقيناً إلى يقين، فكيف يجب النظر إلى زهرة نضيرة ولا يباح النظر إلى وجه جميل ؟

ـ أُترك هذه الفلسفة وحدِّد رأيك في آدم.

ـ هو من المذنبين.

ـ لأنه غريمك في حواء ؟

ـ غريمي في حواء؟ كيف ؟ وهل جُنِنْتُ حتى أهيم بمخلوقة لا تملك غير عينين نجلاوين، ولا تعتزّ بغير قدها الرشيق وأنا أعرف أنها سرقت سواد عينيها من عيون الظباء، ونهبتْ مرونة قدها من أعواد البان ؟ أنا أحب مخلوقةً مقتولة اللحظ مبحوحة الصوت ؟

ـ هي سبب نكبة آدم فلتهبط معه إلى الأرضِ.

ـ يهبط وحده، وتبقى حواء، فما عددت عليها ذنباً يستوجب العقاب.

ـ هذا ما أردنا أن نصل إليه، فقد زعم خصومك أنك لم تراع الأمانة في عدّ أعمال حواء.

ـ إسمعوا، أيها الملائكة، إسمعوا، هل تظنون أن الله يحتاج إلى من يعدّ على عباده الذنوب ؟ إنه عزّ شأنه يعلم من سرائر القلوب ما لا نعلم؛ وهو لم يوكّلنا بعدّ الأعمال إلا ليختبر ما نحن عليه من الأدب والذوق، فهو يبغض أن نكون جواسيس، وهو يرجو أن نتخلق بأخلاقه فنتغاضى عن أشياء.

ـ وهل يتغاضى الله عن أشياء !!

ـ لو حاسبَ الله مخلوقاته بالعدل الحاسم لأهلك طوائف من الملائكة والناس.

ـــ من الملائكة ؟

ـــ نعم، من الملائكة، الملائكة الذين يتعقبون رفيقاً من رفاقهم فيأخذون عليه أنه قدَّم باقةً من الزهر إلى حواء !

ـــ لا تنس أنهم الملائكة الذين يرجون أن تتناسى ذنب آدم كما نسيت ذنوب حواء !

وهنا وقف أحد كبار الملائكة وصاح :

« أيها الرفاق المصطَفَوْن

لا أحب أن نحترب في شأن آدم أكثر مما احتربنا، فلنا مع أسلاف هذا المخلوق تاريخ، وستكون لنا معه تواريخ، وأنا أدعوكم إلى الرفق به إن دعيتم إلى الشهادة غداً في ساحة العدل، فالصدق في الشهادة يُطلب في حالة واحدة، هي الحالة التي يقضي فيها كتمان الشهادة بضياع الحقوق، والترفق بآدم لن ينتصر به باطل، ولن ينهزم به حق، وأنا أخشى أن يغضب الله علينا إن أدينا الشهادة تأديةً حرفية. وهل يحتاج القاضي العالم بالسرائر إلى شهود ؟! »

ـــ ونُذنب بالكتمان ؟!

ـــ قد يكون الكتمان في بعض الأحوال أشرف من البلاغ[1] !!!

ـــ أوضِحْ، أوضح.

ـــ آدم متهم بالعصيان، ولهذه التهمة إن صحَّت عواقبُ سود، فعلينا أن نقف في صفه صادقين أو مرائين.

ـــ وماذا يقول الله ؟

ـــ سيقول إن سَتْر العيوب فضيلة لا يتحلى بها غير الملائكة والأنبياء !

(للحديث شجون)

---

(١) البلاغ من معانيه الوشاية، ومنه : « قدم فلان بلاغاً إلى النيابة العمومية ».

قبل اليوم المشهود*

قضى آدم في صحبة حوّاء ساعات وهو ينتظر اليوم المشهود في ساحة العدل، وهي ساعات كانت أطول من الدهر وأثقل من الجبال.

وزاد في كروب تلك الساعات أن آدم لم يكن في حقيقته إلا خِلقة فطرية يُعوزها الصقل والتهذيب، فكان يبدئ ويعيد في حكاية شجرة التين، بعبارات محمَّلة بعُنجهية الملامة وفظاظة التريث؛ وكانت حوّاء تصبر على أذاه في حين، وتثور في أحايين، وكذلك كانت تلك الساعات أعنف وأفظع من الحساب المرتقَب في ساحة العدل.

ــ آدم، هل وصلت إليك الأنباء الأخيرة ؟

ــ أيّ أنباء ؟

ــ لقد اختصم الأسود والقرود

ــ ثم ؟

ــ ثم اختصم الملائكة المقرَّبون

ــ وفيم يختصم أولئك وهؤلاء ؟

---

* نشرت هذه المقالة في العدد ٤٥٩ على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ٢٠ ابريل سنة ١٩٤٢.

ـــ في أمرنا بعد العصيان

ـــ وما قيمة ذلك ؟

ـــ لقد فهمت مما سمعت أن الرأي العام يعطف على قضيتنا كل العطف

ـــ الرأي العام كله ؟ كل سكان الجنة ينظرون إلى قضيتنا برفق ؟

ـــ ليسوا جميعاً سواءً، وإنما عطف علينا الأكابر من أولئك السكان

ـــ والأصاغر ؟

ـــ هم دائماً أصاغر، ولا قيمة لضجيجهم الصخّاب

ـــ ليس في هذا ما يزيل مخاوفي، يا حواء، فما خشيت يوماً أن يصيبني أذًى من أكابر الخلائق، ولاجازا، في وهمي أن تَصدُر كلمة الإفك عن مخلوق جمّله الله بالقوة أو بالعقل، وإنما الخوف كل الخوف من الأصاغر، فهم الذين يذيعون الصحيح والعليل من أخبار السوء، وهم الذين يطمسون محاسن الأكابر بالإفك والإرجاف، ليقال إن الوجود ليس فيه فاضل ومفضول.

ـــ لا عليك من هؤلاء، فلن يسمع أحدٌ ما يأفِكون... وهل ضعُفت العقول حتى تُسيغ أقاويل المرجفين ؟

ـــ لو كانت العقول تَنقُد كل ما تسمع، وفي كل وقت، لرجوتُ أن تسقط أراجيف الكاذبين، ولكن العقول لا تَنقُد كل ما تسمع، ولا تنصب ميزاناً لكل ما يقال، وسترين يا حواء أن أصحاب العقول أقلية ضئيلة، وهم مع ذلك لا يشغلون أنفسهم بإنصاف المظلومين، وليس فيهم من يترك أعماله ليرفع الشبهات المفتريات من طريق المروَّعين بالبهتان.

ـــ ألم تسمع أن الأسود غضبت من تطاول القرود ؟

ـــ سمعت، ولكني أعتقد أنها غضبة وقتية، فستجد للأسود شواغل تصرفهم عن تأديب أولئك الانذال.

ـــ وقد غضبت البلابل أيضاً

ـــ أعرف ذلك، فقد سمعتها تقول إن آدم هو المخلوق الوحيد الذي

يطرب لصوتها الرخيم، وأنه إن خرج من الجنة فلن تهش للتغريد...
ولكن من يضمن أن يدوم هذا العطف ؟ نحن شجّعنا البلابل والعنادل على الغناء، وأقمنا لهم دولة، ونبّهنا الخلائق إلى ما يملكون من جواهر السجع والرنين. فهل يذكرون هذا الفضل بعد أن نخرج من الفردوس ؟
أنا أخشى أن تصفق لهم الضفادع فيرون النقيق من صور الثناء !

ــ هل بلغك ما قالت الببغاوات ؟

ــ نعم سمعت أنها قالت « إن مخارج الحروف عند آدم سهلةٌ لينة، وأنها تحاكيه في النطق بلا عناء، فهو بذلك أجمل مخلوق » وأنا من هذا أخاف يا حواء.

ــ وكيف ؟

ــ ستستطيع الببغاوات أن تزعم أنها خلائفُ

ــ خلائفُ مَنْ ؟

ــ خلائف الحيوان الناطق.

ــ خلائف آدم ؟

ــ إي، إي، أليست تنطق كما ينطق ؟

ــ ولكنها لا تفقه شيئاً مما تنطق ؟

ــ من حق الببغاوات أن تدّعي لأنفسها ما تشاء، حين يغيب أهل العقل والبيان.

ــ ولكن أهل الجنة سيذكرون دائماً أنك وحدك الشاعر والخطيب.

ــ أهل الجنة لن يذكروا شيئاً، وسوف تعلمين.

ــ خبلتني، خبلتني !

ــ إن كنتِ في حاجة إلى تزيد من الخبال، أيتها المخبولة الحسناء... إسمعي.

ــ إنك تُرعبني حين تقول اسمعي.

ــ إسمعي يا حواء، ثم اسمعي، المجد يحتاج إلى حراسة، والأصدقاء

يحتاجون إلى حراسة، وقد تكون رعاية الغنم أسهل من رعاية الأَصدقاء، ولن يحفظ عهدَنا أحدٌ حين نغيب.

ـــ ولا الظبي الذي ربيناه منذ أسابيع ؟

ـــ سيجد ذئباً يرعاه، وسيأنس بالأنياب الحِداد، أضعافَ ما أنِس بالأنامل اللطاف.

ـــ هي أناملي، لا أنامِلُك.

ـــ حتى في أوقات الكرب الماحق لا تنسى المرأة أنها مخلوق لطيف !

ـــ ترتاب في جمالي ؟

ـــ أستغفر الله !

ـــ ولا تستغفر الحب ؟

ـــ وأستغفر الحب وأتوب إليه !

ـــ صِدق، صِدق ؟

ـــ وهل كذبتُ عليك يوماً يا حواء ؟

ـــ أنا إذاً جميلة وأنت تحبني ؟

ـــ ما أحببتُك يوماً، ولا رأيتك جديرة بالحب، لأن عقلك أصغر من عقلي، والحب تفاهم بين عقلين، قبل أن يكون تلامساً بين جسمين، ولكن صوتاً يزعجني يا حواء.

ـــ وما ذلك الصوت المزعج ؟

ـــ هو الصوت الذي يصرخ بأن لا بد لآدم من حواء.

ـــ تقول هذا وأنت الذي يُشغل عني بما في الفردوس من شجر ونبات وطير وحيوان ؟

ـــ أنا شُغِلتُ عنك بتلك الخلائق ؟ هيهات ثم هيهات ! كنت أتأمل الأشجار لأعانق الغصن الذي يشبه قدك النشوان، وكنت أداعب الأزهار لأرى فيها شمائل من خدك الوهاج، وكنت ألاعب الأطيار لأسمع سجعاً يذكّر بصوتك المقتول، وكنت أناغي فصائل الحيوان لأعرف أن لك

صوراً في عيون الجآذر وأجياد الظباء. حبك يا حواء أذواني وأضناني وأبلاني، وستسمعين من أخباري ما تكرهين.

ـــ عَدَتْك العوادي، أيها الفارس الجميل !

ـــ سأصبح فارساً بلا فَرَس.

ـــ أنت ؟

ـــ نعم، أنا، فقد حدثني أحد الملائكة أن الله لا يقيم وزناً لهفوات النساء، فإن القضاء الذي سيقام في ساحة العدل سيجعلني المدين.

ـــ وحدك ؟

ـــ وحدي !

ـــ وإذن ؟

ـــ وإذن أهبط الأرض وتَبْقَيْنَ في الفردوس.

ـــ مع من ؟

ـــ مع جميع هذه الخلائق من شجر ونبات وطير وحيوان ومع نهر الكوثر، ومع الملائكة المقرَّبين.

ـــ أهذه خلائق ؟

ـــ بالتأكيد، وفيها الكفاية لمن يحتاج إلى أنيس.

ـــ وأصير كالدَّجاجة الحائرة عند غياب الديك ؟

ـــ كيف تحارين وأنت بين المهتدين ؟

ـــ هداية حواء في غيبة آدم هي أقبح صورة من صور الضلال.

ـــ سيقضي الله في أمرنا بما يشاء.

ـــ الله سيقضي بأن تعيش المرأة بلا رجل ؟

ـــ سيقضي الله بالعدل، فالرجل أذنب والمرأة لم تذنب، والعقاب لا يحق على غير المذنبين.

ـــ تخرج من الجنة وأبقى وحدي بحجة أنك المذنب ؟

ـــ بالطبع !

ـــ وهذا عدل ؟

ـــ هذا هو العدل.
ـــ والله يريد ذلك ؟
ـــ يقال !
ـــ آدم، سترى أنني أشجع منك، وأوفى منك !
ـــ من السهل أن تكوني أشجع مني، ولكن من الصعب أن تكوني أوفى مني.
ـــ المرأة لا تعتصم بالدلال إلا في أوقات الصفاء، وهي عند الخطر فداء الرجل من جميع الأسواء. ألم تسمع حديث الصائد ؟
ـــ وما حديث الصائد ؟
ـــ إذا ساور الصائد أسداً ولَبُؤَة، كان عليه أن يقتل اللبؤة قبل أن يقتل الأسد.
ـــ ولماذا ؟
ـــ لأن الأسد ينسحب بعد انصراع اللبؤة، أما اللبؤة فتقاتل بعد انصراع الأسد إلى أن تموت.
ـــ وأنا سأجادل الله يا آدم.
ـــ وتجادلينه يا حواء ؟
ـــ أنا أفصح من جميع المحامين، والمرأة تحارب بالدمع حين تعجز عن المحاربة باللسان.
ـــ ولكن الله أكبر من أن ينخدع بدمع المرأة ولسانها.
ـــ أنا أعرف الله أكثر مما تعرف.
ـــ كل شيء جائز إلا أن تصل المرأة إلى معرفة الله على الوجه الحق.
ـــ أنت لا تعرف خطر المرأة حين تصرخ وتولول.
ـــ أو ينزعج الله عزّ شأنه بالولولة والصراخ ؟
ـــ سترى كيف أصنع، سترى، سترى، سأقيم مناحة في ساحة العدل، وسيبكي معي جميع الإناث من الطير والحيوان.
ـــ والنتيجة ؟

ـــ النتيجة معروفة منذ هذا الوقت، فسيصفح الله عنك، ليريح أهل الجنة من الولولة والصراخ.

ـــ ويقول التاريخ إن آدم نجا من العقاب لأن امرأته بكت في ساحة العدل ؟

ـــ ما قيمة التاريخ، وهو لفظٌ بلا مدلول، ولا يعتزُّ به غير الضعفاء ؟

ـــ وتقولين كلما اختصمنا إنك سبب نجاتي !

ـــ هل يؤذيك أن تعترف بفضلي عليك ؟

ـــ تمنّين عليّ قبل أن يقع الفضل المزعوم ؟ أنت السبب فيما أعاني من البلاء ومع هذا تطالبين بالثمن لدفع نكبةٍ جناها عقلُك المنخوب !

ـــ أنا أعقل منك !

ـــ لأنك أغريتني بالأكل من شجرة التين ؟

ـــ وهل في الجنة شيء اسمه شجرة التين ؟

ـــ تكذّبين الواقع الملموس ؟

ـــ واقع ملموس ؟ ما هذا الكلام الأجوف ؟

ـــ شجرة التين، يا حواء، شجرة التين.

ـــ قلت لك إن الجنة ليس فيها شيء بهذا الإسم الغريب.

ـــ ولم نقع في العصيان ؟

ـــ أي عصيان ؟

ـــ العصيان الذي أوجب أن نفتضح، يا حواء.

ـــ وكيف افتضحنا، يا آدم ؟

ـــ بظهور السوأتين.

ـــ الطير والحيوان لا تعرف ستر السوأتين، فأرح نفسك من هذا العناء.

ـــ أترين أن أواجه الله بهذا القول ؟

ـــ واجه الله بما تشاء، ولا تخف من غضبه عليك !

ـــ وكيف ؟

ـ لأنه لن يصنع بك أشد مما صنع.

ـ ماذا ؟ ماذا ؟

ـ لقد خلق لك ضميراً، ثم خلق لك ضميراً، لتقضي حياتك في عذاب !

ـ وإذن ؟

ـ وإذن تكفر بالله وتثور عليه.

ـ لأصير...

ـ لتصير حيواناً سعيداً كسائر أصناف الحيوان.

ـ الفضيحة الأبدية، ولا هذا المصير، يا حواء.

ـ ماذا تريد بنفسك يا آدم ؟

ـ أريد أن أكون أول مسؤول أمام الله في هذا الوجود.

ـ وما غنيمتُك من هذه المسؤولية ؟

ـ هي أن أتشرف بالثواب والعقاب.

ـ الله قد يعاقِب ولا يُثيب.

ـ يهمني أن أُعاقَب ولا يهمني أن أُثاب.

ـ لأنك...

ـ لأني رجل، وسعادةُ الرجولة في احتمال التبعات.

ـ وبهذه العقيدة ستلقَى الله في ساحة العدل ؟

ـ نعم، نعم.

ـ وإذن يكون من حقي أن أقول إني في صحبة رجل هو أشجع الرجال وأشرف الرجال !

(للحديث أفانين)

في ساحة العدل*

قبل أن أمضي في الكلام عما وقع في « ساحة العدل » أذكر أن فرصةً جميلة أتاحت لي مقابلة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ « محمد مصطفى المراغي » فتلطّف — حفظه الله — وقدّم إليّ ملاحظات سديدة على بعض ما مرَّ من الآراء في هذه الأحاديث؛ وكان من كلامه ما نصُّه بالحرف :

« أنت متجه إلى إلقاء تبعة المعصية على حواء، وفاتك أن تذكر أن عدم تماسك آدم هو السبب في تمرُّد حواء ».

والواقع أني طُفت بهذا المعنى في « حديث السِّدرة »، ولكن عبارة الأستاذ الأكبر دقيقة جداً، وهي من الإيجاز النفيس. ولعل فيها رداً على من غضبوا جاهلين يوم دعوناهم إلى الحزم في معاملة النساء.

سريرة آدم

ضاق صدر آدم بما وقع من قرب الشجرة المحرَّمة، وفاض كربُه حين تذكَّر أن حديث الله مع الملائكة كان مقصوراً عليه فقد قال :

---

* نشرت هذه المقالة في العدد ٤٦٠ على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ٢٧ ابريل سنة ١٩٤٢.

« إني جاعلٌ في الأرض خليفة » ولم يذكر حواء، وكذلك سكتت الملائكة عن حواء، فكيف يفوته أن يلتفت إلى هذا التفرد بالتكليف وهو غاية في التشريف ؟

ثم تذكَّر أن الله عرَض الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها؛ وتشجَّع آدم فحملها وهو لا يدري أن شجاعته لم تكن إلا ضرباً من الظلم والجهل.

لو كان آدم يعلم الغيب لأعلن عجزه عن حمل الأمانة بعد نكوص السموات والأرض والجبال، ولكن شبابه فَتَنه وأغواه فتوهم أنه يقدر على حمل جميع الأثقال.

سيقف آدم في ساحة العدل وهو نادم خَزْيان... ألم يضيِّع الثقة بمواهبه السامية ؟ ألم ينهزم أمام امرأة أعظم أسلحتها البكاء ؟

في ساحة العدل ستحتشد الخلائق من الملائكة والجن والطير والحيوان، وذلك أول معرض يعرفه التاريخ. ولن يكون آدم متفرِّجاً في هذا المعرض؛ ولكنه مع الأسف الموجع سيكون مَسْلاة المتفرجين. والويل كل الويل لمن يصبح فرجةً لأهل الفضول، ولو كانوا من الأشراف، إن جاز لأهل الشرف أن يشهدوا موقفاً يتأذّى به رجلٌ شريف.

سيقف آدم متهماً، آدم الذي اصطفاه الله، ولم يسمع فيه أقوال الملائكة المقربين؛ فبأي وجهٍ يقف في قفص الاتهام، وأمام القاضي الذي منَّ عليه بنعمة الوجود ؟

جهنم أروح من الوقوف في ساحة العدل بالفردوس.

كان آدم يتمثل من لمحة إلى لمحة شماتة الشامتين، ثم يخفّ كربه كثيراً أو قليلاً حين يتذكر أن الذين اعترضوا على خلقه هم الملائكة، والشماتة لا تجوز من أصحاب الأرواح النورانية.

ولكن الجنة فيها سكان لا يمتّون إلى النور بعِرق، ومن حقهم أن يشمتوا في المخلوق الذي يفوتهم بمراحل أبعد مما بين الأرض والسماء.

أتستطيع المعصية وهي حقيرة وخسيسة ودميمة أن تمنح الأنذال فرصة التعالي على الأبطال ؟

لو كان آدم يعرف أن المعصية ستجعل من حق الحشرات أن تتسابق في الزحف على البطون لتشهد موقفه في ساحة العدل... لو كان آدم يعرف أن إبليس المطرود سيتبجّح بأنه أغواه بلا عناء... لو كان آدم يعرف أن الله يحبه، وأن استهانة المحبوب بأوامر الحبيب من علائم الخذلان... لو كان آدم يعرف أن الموت في الطاعة أشرف من الحياة في العصيان... لو كان آدم يعرف، لو كان آدم يعرف !!

طافت هذه الخواطر بآدم وهو في الطريق إلى ساحة العدل فكاد يُصعق من هول الموقف. وكاد يتمنى لو تحول إلى حيوان أعجم لا يفقه كنه التكاليف. وهل يستطيع مع المعصية أن يقول إنه أشرف من أي حيوان ؟

لقد عصى ربَّه فغوى، فما استعلاؤه وقد هوت به المعصية إلى الحضيض ؟

المعصية إثمٌ موبق، ولو جازت على الجبل لحوَّلته إلى هباء. عصى آدم ربه فغوى، فليستعد آدم لحمل جريرة العصيان. وكيف يعصي الله من يعرف أنه خالق الأنوار والظلمات ؟ كيف يعصي الله من يعرف أنه واهب القدرة على العصيان؟ وهل تكون الشهوة الأثيمة أعذب مذاقاً من العلقم الذي يجترعه من يصد نفسه عن الآثام ؟ إن حرمان النفس من أهوائها في سبيل الطاعة له طعم شهيٌّ جداً، فكيف غابت هذه الحقيقة عن آدم ؟ وكيف رضي أن يضام بسبب هواه في مسايرة حواء ؟ لو كان يملك محو هذه الخطيئة بأي ثمن لكانت روحه أول مبذول ولكنه لا يملك

محو ما وقع، وسيؤدي ثمناً أعظم من الروح، هو سمعته بين سكان الفردوس، فسيشهدون جميعاً أنه مَدين، وأن عقله لم يعصمه من الانحراف عن جادّة الرشاد. وسيرى بعينيه وجوهاً لا تعيش إلا من اغتياب الأحرار، وهو الذي قدّم الزاد بنفسه لتلك الوجوه الشوهاء.

جَلجَلتْ هذه المعاني في صدر آدم فجلس يستريح تحت إحدى الشجيرات وهو يتمنى لو ضلَّ الطريق إلى ساحة العدل، وخطرت له فكرة الهرب ولكن إلى أين ؟ وهل من عدالة الله مهرَب ؟

ثم تشجع فجأة لخاطر جميل طاف بنهاه، فما ذلك الخاطر الجميل ؟ تذكر آدم أن الله يعاقب مرة واحدة ثم يصفح لأنه عظيم، أما الذين يعاقبون على الهفوة الواحدة مرات كثيرة فهم صغار الخلائق. وما على آدم بأس من عقوبة تمر وتمضي ثم يواجه أعماله من جديد وقد تطهَّر بالعقاب.

وقاضي اليوم هو الله، والعدل مضمون مضمون، ولا خوف من التزيد والإسراف، فليمض آدم إلى المحكمة وهو ثابت القدم رابط الجأش، فما في كل وقت تكون المحاكم إلى ذلك الجبار الرؤوف... وفي أثناء الطريق ثارت نفسه فدمدم :

« إن الله لا يحكم على آثم إلابعد أن يتيح له الألوف من فرص المتاب. فكيف يعاقبني لأول هفوة تبدُر مني ؟ »

فهتف هاتف : تأدب يا آدم، واذكر نعمة الله عليك، فما عاجَلك بالعقوبة إن كان سيعاقبك إلا ليؤكد كرامتك الذاتية بين الخلائق.

ــ التعجيل بالعقوبة مزية ؟

ــ مزية عظيمة، لو كنت تعرف.

ــ أحب أن أعرف.

ــ العقوبة حكمٌ لك لا عليك.

ـــ لم أفهم شيئاً، أيها الهاتف.

ـــ ستفهم بعد لُحَيْظات، وستندم على أن لم تأكل شجرة التين بفروعها وجذورها.

ـــ أرجعُ فآكلُها أكلاً لَمًّا ؟

ـــ إحترس ثم احترس، فأنت نبيّ، والأنبياء يراعون ظواهر الشرائع قبل أن يراعوا بواطن الحقائق، ترفقاً بمن يغيب عنهم إدراك اللباب من أسرار الوجود.

ـــ إذن كان من حقي...

ـــ لا حق لك في شيء، فامض خاشعاً إلىٰ ساحة العدل.

ـــ بدون خوف ؟

ـــ بأعنف صورة من صور الخوف، لأن الله يبغض الآمنين أشد البغض.

ـــ وكيف ؟ كيف أيها الهاتف ؟

ـــ لأن الشعور بالأمان بداية الخذلان، والله لا يرضى لك أن تسير إلى الانحلال.

سريرة حواء

رأت حواء بجزع وارتياع أنها لم تُدْع لحضور « ساحة العدل » إلا مع الشهود، فما معنى ذلك ؟ معناه أنها لم ترتق إلى منزلة العقاب، ومعناه أن منزلتها في هذه القضية منزلة ثانوية، ومعناه أنها لم تجترح غير الإغواء، وهو ذنبٌ مقسَّم على ثلاثة شخوص : الحية وإبليس وحواء... ثم صرختْ :

ـــ أنا الجانية، أنا الجانية، وآدم لم يأكل ثمرة التين إلا من يدي.

ـــ فهتف هاتف : لن يُنصَب للمرأة ميزان، وهي التي تفرّق بين الابن وأبيه والأخ وأخيه، ولن يغفر الله للمرأة أنها لا تدخل بيتاً إلا شطرتْه إلى شِيَع وأحزاب، وقد كانت وستكون أول مصدر للنزاع والشقاق.

ـــ لعلك تريد حواء الأولى، أيها الهاتف ؟
ـــ حواء الأولى لم تعرف التبرّج.
ـــ وأنا متبرّجة... أنا ؟؟
ـــ نعم، فقد شهدتُك تَنْظِمين من حبُوب البِسِلَّة عِقداً تزيّنين به جِيدك الأغيد، ورأيتك تعصرين الزهر بين كفَّيْك ثم تمسحين بعصيره أجزاء من جسمك البديع لتظهر عليه خطوط وردية أو عسْجَدِية.
ـــ وما العيبُ في ذلك ؟
ـــ العيب أنك لا ترضَين بما قسَم لك الله من الحظوظ.
ـــ وماذا أعطاني الله ؟ ماذا أعطاني ؟
ـــ كل امرأة تقول هذا القول، وما رضيت امرأةٌ عن نصيبها أبداً.
ـــ وما نصيبي ؟ وهل كان لي من النعيم نصيب ؟
ـــ لك آدم يا حواء.
ـــ آدم الذي يريد أن يتمتع وحده بجريرة العصيان ؟
ـــ تريدين أن تقاسميه أعباء هذه الجريرة ؟
ـــ هي جريرتي وحدي، وأنا صاحبة الحق الأول في الوقوف جانيةً « بساحة العدل ».
ـــ وترين موقف الجناية من مواقف التشريف ؟
ـــ هو فرصة لأن يصبح الجاني على ألسنة جميع الخلائق.
ـــ إن كان هذا ماتريدين فاطمئني، فلن تقع جريمة في شرق أو غرب إلا قيل « فتِّش عن المرأة ». ولن يتنسّك عابد، أو يترهب زاهد، إلا طلباً للسلامة من كيد المرأة. ولن تخلو شريعة من التحذير المخيف، التحذير من حبائل النساء. ولن يرتفع مرتفع أو ينخفض منخفض إلا وفي خياله أن امرأةً نصحتْه فارتفع، أو خدعتْه فانخفض. ولن يبرع أديبٌ أو فنّان إلا وهو مَدين لمخلوقة سفيهة أو حليمة من بناتك يا حواء. ولن ينبغ كاتب أو شاعر إلا بوحي يُوحى إليه من إنسانة عليلة الطرف أو صحيحة الفؤاد.

ولن يخلو كتابٌ من اسم المرأة، ولو كان شريعة تتلقاها الأرض عن السماء.

ــ أرحْتَني، أرحتني، أيها الهاتف.

ــ إنما نريح مصدر التعب لنستريح !

جلسة علنية

صدر القرار بأن يحاكم آدم في جلسة علنية يشهدها جميع سكان الفردوس، فكان على الملائكة أن يهيئوا ساحة العدل تهيئة تسمح بأن يشهدها أولئك الخلائق بلا عناء.

وكيف تحضُر جميع الخلائق ؟

في الطيور طوائف من الحواضن، والطيور الحواضن لا تترك البيض المحضون ولو تعرضت للموت من الظمأ والجوع، فمن المستحيل أن تترك أعشاشها لتشهد محاكمة آدم صاحب حواء.

وفي الأنعام بهائم تأكل الطعام وهي مطعونة بسهم الموت، فلا أمل في أن تتحرك لشهود القضاء في ساحة العدل.

وهنالك الحمير، وهي لا تعلن عن سرورها بغير النهيق، فمن الخير ألا تحضر مجلس القضاء وصوتُها أنكر الأصوات.

وفي الوجود خلائق لها أبصار، وليس لها بصائر، فمن الحزم أن تُراح من شهود جلسة لا يستفيد منها غير أرباب القلوب.

ثم اتفقت آراء الملائكة على أن المراد بعلنية الجلسة إعطاء الفرصة لمن يستطيع الحضور، وليس المراد أن تحضر الخلائق جمعاء، وهل يتيسر لأسماك الكوثر أن تشهد محاكمة آدم وهي تُعرَّض للموت إن طال ثواؤها بالعَرَاء ؟

والحق أن الملائكة لم يشهدوا في ماضيهم القديم أصعب من ذلك

الموقف، فقد كان عليهم أن يراعوا في تهيئة ساحة العدل طبائع الطير والحيوان والحشرات، فمن الطير أنواع تستريح إلى الأرض، أمثال الحَجَل والكروان والهداهد والطيور المائية، ومن الطير أنواع لا تستريح بغير الوقوف فوق أعواد، فكيف تُعَدُّ الساحة لأولئك وهؤلاء ؟ إن ذلك لا يتم بغير متاعب، والجلسة مستعجلة، ولا يمكن طلب التأجيل.

وعرضتْ للملائكة مشكلتان في غاية من الخطورة : المشكلة الأولى مشكلة النزاع الذي ثار بين الأسود والقرود بعد فضيحة آدم وحواء، وهو نزاع قد يثور من جديد إن قضى الله على آدم بما يشرح صدور القرود.

أما المشكلة الثانية فهي الخوف على الطيور المغردة من عدوان الطيور الجوارح، فالصقر يشتهي الطير المغرد شهوة عارمة، ويكاد يتوهم أن لحم الطير المغرد أطيب من خدود الملاح، وتلك الطيور لن تسكت عن التغريد، لأنها مفطورة على حب الغناء، ولو في حضور الشواهين، والجمال قد يَجنِي على الجميل.

قال أحد الملائكة : ولكن نحن في الجنة ولا خوف من بطش الأقوياء بالضعفاء.

فقال له صاحبه وهو يحاوره : كنا في الجنة !

ــ كنا ؟

ــ نعم، كنا، وما فات مات.

ــ أوضِحْ، يا رفيقي، أوضحْ.

ــ كانت الجنة جنة.

ــ فصارت ؟

ــ فصارت كما ترى، ألا تعرف أن آدم عصى ربه فغوى ؟

ــ وما خَطَرُ ذلك ؟

ــ هو خطرٌ فظيع فظيع، وأنا أخشى أن تكون معصيته قدوة سيئة

لجميع سكان الفردوس، فسيقول قائلهم : إن ما جاز صدوره عن الكبار يجب صدوره عن الصغار.

ــ وآدم كبير ؟

ــ هو كبير الكُبَراء، وستعرف صدق ما أقول بعد حين.

ــ وإذن تكون معصيته شرًّا مستطيراً، وأغلب الظن أن الله سيطرده من الجنة بلا إمهال.

ــ برغم منزلته العالية ؟

ــ خفضته المعصية، فلينزل إلى الحضيض، إلى الأرض التي لا يعرف فيها السعادة غير الديدان، فهي وحدها التي تُرزَق في الأرض بغير حساب.

ــ والنتيجة ؟

ــ والنتيجة أن جلسة اليوم تحتاج إلى حزم، وهي تجربة قاسية، فلنحاول تقسيم الحاضرين إلى طوائف تَفصِل بينها حواجز، لنأمن الثورة المرتقبة من هياج الغرائز الغافية في صدور الطير والحيوان. ولهذا اليوم ما بعده يا رفيقي، فإن نجحنا في تنظيم هذه الجلسة إلى أن تمر بسلام، فسنكون أهلاً للثقة التي تمنحنا الحق في أن نكون على جميع الخلائق رقباء.

اليوم المشهود

كان سكان الجنة تسامعوا بأخبار حواء، ولم يرها منهم إلا الأقلُّون، بسبب احتجازها بين البواسق، وبسبب نفرتها من أهل اللغو والفُضول، وبفضل ما فُطِرت عليه من الدلال المَدُوف بالكبرياء.

والفرصة الوحيدة لأن يروها أجمعون هي حضور محاكمة آدم في ساحة العدل، فمن المؤكد أنها ستحضر لمواساة فارسها الجميل.

خفَّ سكان الفردوس لمشاهدة حواء، ولم يتخلف إلا من صدَّته الرعاية الواجبة للأفراخ أو الأشبال.

من كان يظن أن الأسماك رحَّبَتْ بالموت لتقضي ساعة أو ساعتين في مشاهدة حواء ؟

وتقدم غضنفلوث لتمتطي حواء ظهره المنيع، فدخلت الساحة في عِزة لا يظفر بمثلها الملوك.

فكيف كانت حواء في ذلك اليوم ؟

كانت وكانت وكانت :

كان طرفها الكحيل يَعد ويُخلف في اللمحة الواحدة ألوف المرات، وكأنه جذوات تقتتل في هدوء وسكون.

وكان أنفها في ملاحته يتموج تموّجاً نورانيًّا في حدود يوحي بها لحنُها الرنّان.

وكان صوتها ــ صوت حواء الجميلة ــ يشهد بأن حناجر البلابل والعنادل أُودعتْ حَلقها الرخيم.

وكان نحرُها ــ نحر حواء ــ مرمراً ينطق. وما أخطرَ المرمرَ الذي ينطق !

وكان لثناياها بريق يفوق بريق الحَبَب عند فورة الرحيق.

وكان لذراعَيْها استدارة فنية تهتف بأن الله يزيد في الخلق ما يشاء.

أما جسم حواء في جملته بلا تفصيل، فهو الوجود في جملته بلا تفصيل.

كانت أرقّ من الأزهار في آذار، وأعذب من الأعناب في آب.

كانت أحلى من وسوسة الأماني في الصدر المكروب، وأشهى من جلجلة المعاني في القلب الموهوب.

وكان تثنّيها يوهم بأن قوامها أُلِّف من خطرات تفوق العدَّ والإحصاء.

في المكان المحدود من جسمها البديع ألوان وألوان، فكأن كل جزء من أجزاء ذلك الجسم قصيدة تحترب فيها القوافي والأوزان، والألفاظ في الشعر الرائع تشبه الأوصال في الجسم الفينان.

كانت حواء في ذلك اليوم... كانت وكانت وكانت.

فكيف كانت ؟ كيف لا كيف، ألم يكف أنها حواء ؟

قال الصقر : لو كانت هذه أنثاي لنذرت الصوم عن لحوم الكنار شكراً لله على هذه المنحة الغالية.

وقال الأسد : لو كانت هذه أنثايَ لشكرتُ الله بالصفح عن القرود.

وقال البلبل : لو كانت هذه أليفتي لابتدعت لحناً يسكر سكان الفردوس.

فهتف هاتف : حواء لآدم، وآدم لحواء، وليس في الإمكان أبدع مما كان. فغضُّوا أبصاركم عن حسنٍ هو عزاء آدم في بلواه، وهو حجته في استباحة العصيان.

محكمة، محكمة !!

ونظر آدم فرأى جلال الله يُسيطر على الموقف، ورأى أنه سيحاسَبُ أمام جميعِ الخلائق.

ــ رباه، أجِرنِي !

ــ وكيف أُجيرك وأنت مذنب ؟

ــ أحب أن يكون الحساب في جلسة سِرية.

ــ لماذا ؟

ــ لأدافع عن نفسي بحرية، فعندي كلام لا أحب أن يسمعه القرود، ولأني أخاف أن تتصعق حواء من شماتة الشامتين، وهي أرقُّ من الوهم الذي يساور القلب الأوّاب.

ـــ لك يا مخلوقي الأثير ما تريد على شرط أن تكتم ما سيدور في الجلسة السرية، فأنا أعلم أنك ستفوه بأقوال تزلزل عزائم الآساد في رعاية الأشبال.

محاكمة « آدم » و « حواء » في جلسة سرية

بين المحسوس والمعقول

سنجد في حديث اليوم أن الله ظهر « لآدم » و « حواء » بصورة حسية، وذلك يخالف العقيدة الإسلامية، فكيف نقبل تلك الصورة مع تنزيه الله عن أن تراه الأبصار ؟

الحل سهل : فنحن نلخّص كتاب شيث بن عربانوس، وهو كتاب وُضعتْ أصوله في عهود فطرية لا تُدرك المعقولات إلا عن طريق المحسوسات، فهي لا تتمثل الله إلا بصورة حسية تراها العيون.

وما وقع في كتاب « شيث » وقع مثله في النسخة الموجودة بين أيدي الناس من « التوراة »، فعبارة التوراة صريحة في أن الله ظهر لآدم، وأن آدم وامرأته اختفيا بين أشجار الجنة حياء من ملاقاة الله وجهاً لوجه بعد العصيان.

وعلى فرض أن التوراة الموجودة بين أيدي الناس هي التوراة الحقيقية، وأنها لم تُصَب بتحريف ولا تبديل، فمن الممكن أن نرجع نصوصها إلى

* نشرت هذه الرسالة في العدد ٤٦١ على صفحات مجلة الرسالة بتاريخ ٤ مايو سنة ١٩٤٢.

الاستعارة التمثيلية، كما صنع المفسرون حين وجدوا في القرآن ألفاظاً لا تساير الروح الإسلامي إلا بعد التأويل.

والواقع أن الإنسانية في عهودها الفِطرية جسَّمت جميع المعاني، فقد جعلت لله وجهاً ويدَيْن، وصورته بألوان لا نراها اليوم، بعد أن ارتقت العقول فصار من السهل أن تؤمن بأن الله ليس كمثله شيء، وأنه فوق ما تتصور الأوهام والظنون.

وما سُقنا هذا التمهيد لقراء (الرسالة) وهم من الخواص، وإنما أردنا أن نحرر الموقف تحريراً يرفع من طريقنا جميع العقبات لنصل إلى الغرض بسلام وأمان.

الجلسة السرية

انزعج فريق من الذين حضروا الجلسة حين طلب آدم أن يحاكم في « جلسة سرية »، وأخذ منهم الغيظ كل مأخذ حين انطوت أجابة الله إلى ما طلب، فقد كانوا يشتهون أن يُشبعوا ما انطوت عليه جوانحهم من شهوات الفُضول، وكانوا يتوقون إلى معرفة ما سيدافع به آدم عن نفسه في ذلك المقام الرهيب، وربما كان فيهم من تسوقه ثائرة الحقد إلى رغبة التشفي من آدم وهو مأخوذ بجريرة العصيان.

جزع آدم

كان الخوف من شماتة القرود هو الذي حمل آدم على طلب الجلسة السرية، وفاته أن يذكر أن لعلنية الجلسة حكمة عالية، فهي تدعو القاضي إلى التلطف في الاستجواب، ترفقاً بمن يحاسَب أمام جماهير لا تخلو من أعداء وأغبياء، وفاته أيضاً أن يذكر أنه سيقف وحده أمام قاضيه، وللوحدة رهبةٌ تُزيغ البصر وتَعقل اللسان.

آدم يقف وحده أمام الله في جلسة سرية ؟

وأين المحرّضون على المعصية وهم ثلاثة شُخُوص : إبليس والحية وحواء ؟

فإن كان الله يريد إقامة العدل فليطلب حضور المحرّضين ليلقوا جزاءهم على التحريض.

وما كاد هذا الخاطر يطوف بقلب آدم حتى صاح الهاتف :

ــ آدم، لا تجمع بين المعصية والجهل.

ــ أنا من العصاة ولستُ من الجاهلين.

ــ إن اعتراضك على الله هو الغاية في الجهل.

ــ أنا لا أعترض على الله، ولكني أطلب إقامة العدل.

ــ وما العدل عندك ؟

ــ هو أن يحاسَب المحرضون قبل أن أحاسَب.

ــ ومن هؤلاء المحرضون ؟

ــ الحية وإبليس وحواء. ومهما يكن فلا أقل من أن يحاكم إبليس اللعين.

ــ أترك إبليس في غفوته، يا آدم، ولا توقظ الشر الوسنان.

ــ لا بد من محاكمة هذا اللعين على التحريض.

ــ إبليس لعين ؟

ــ بشهادة الله.

ــ وكيف انخدعت بأحابيله وأنت تعرف أن الله شهد بأنه لعين ؟

ــ تلك هفوة أوقعني فيها الجَدُّ العاثر.

ــ آدم، لا تجمع بين المعصية والجهل.

ــ أراك تكرر هذه العبارة، أيها الهاتف، فماذا تريد ؟

ــ أريد القول بأن الله لم يعلن غضبه على إبليس إلا لحكمة سامية.

ــ وما تلك الحكمة ؟

ــ هي أن يرفع الغشاوة عن أصحاب الغرور والغفلة والانخداع.

ــ أوضح، أيها الهاتف.

ـــ إن الله سخَّر إبليس لامتحانك، يا آدم، وشاءت رحمتُه بك أن يعلن أن إبليس شيطانٌ رجيم، لتنقطع حجتك في الانخداع أو لتأخذ الحيطة لنفسك فتحترس من ذلك الناصح الظنين... فإذا استطاع إبليس على سوء سمعته أن يجرّك إلى العصيان، فكيف يكون حالك لو كلّف الله بامتحانك أحد الملائكة المقرَّبين ؟

ـــ آه، آه، آه، صَعَقْتني أيها الهاتف !

ـــ ما صعقتك، ولكنني نصحتك، فاترك إبليس في غفوته، ولا توقظ الشر الوسنان.

ـــ وماذا يقول إبليس لو ألححتُ في محاكمته على تهمة التحريض ؟

ـــ سيصمُت صمت الأموات.

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنه على رأس الشُّرطة السِّرية.

ـــ هو إذاً جاسوس ؟

ـــ إن كانت هذه اللفظة تشفي غليلك فاملأ بها مسامع الأرض والسماء !

ـــ أراك تعطف على إبليس مع أنه شاقَّ الله بعناد وكبرياء.

ـــ لا يستطيع مخلوق أن يشاق الله، ثم يترك له الله أي فرصة للتمتع بنعمة الوجود.

ـــ أيَرضَى الله عن نزعات إبليس ؟

ـــ لو أعلن رضاه لضاعت الفرصة في امتحانك.

ـــ إن رأسي يدور من هول هذا المنطق.

ـــ كنت أنتظر أن يدور رأسك من هول ما صنعت بنفسك.

ـــ وماذا صنعتُ بنفسي ؟

ـــ انخدعت بنصيحة مخلوق كتب الله عليه اللعنة إلى يوم الدِّين، فكيف يكون حالك لو خَدَعَك مخلوق غير ملعون ؟ إن إبليس فضح

نفسه حين قَصَر دعوته على العصيان، وكان في ذلك ما يكفي لرفع الغشاوة عن عينيك.

ــ آه، آه، آه، صعقتني أيها الهاتف !

ــ وسأصعقك مرة ثالثة فأقول : إنك شهدت على نفسك بالغفلة والحمق حين انخدعت لمخلوق مفضوح، فقد أعلن على رؤوس الأشهاد أنه سيزيّن لك ولذريتك وأنه سيغويكم أجمعين، فما دفاعك عن نفسك وقد صلصل الناقوس بأن إبليس غريمك وأنه سيصرعك حين يستطيع ؟ ما دفاعك وقد وضعت قدميك فوق أشواك سمعتْ أخبارها أذناك ورأتها عيناك ؟

ــ وترى أيها الهاتف أن أسكت فلا أطلب محاكمة إبليس على التحريض ؟

ــ ذلك ما أراه، فأنا أخشى أن يظهر لسكان الفردوس أن إبليس أشرف منك.

ــ أشرف مني ؟ وكيف ؟

ــ لأنه خادعٌ وأنت مخدوع، فإن لم يكن أشرف منك فهو أقوى منك، والقوة من علائم التشريف.

ــ وألقي الله وحدي وجهاً لوجه في هذا المقام الرهيب ؟

ــ كما لقيته وحدك وجهاً لوجه حين عصيته.

ــ أكان الله يراني عند العصيان ؟

ــ ألم تكن تعرف أنه يراك ؟ إن أوزارك بالجهل أوزارٌ ثقال !

ــ يظهر أني سأخسر القضية في ساحة العدل.

ــ لا خسران في ساحة العدل، فستفوز بأعظم ربح وهو التأديب.

ــ أترك الحية وأترك إبليس، واكتفي بحضور حواء.

ــ لتحاسَب ؟

ــ لتشهد محاسبتي، فقد يرى كرم الله أن يعفيني من الذل فما تكرم امرأةٌ زوجها إلا إذا كان من الأعزّاء، وما أحسب الله يريد أن أهان.

يوم الحساب

ـــ من أنت يا هذا ؟

ـــ عبدُك آدم.

ـــ وما تلك بيمينك ؟

ـــ أَمَتُك حواء.

ـــ وفيم حضرتما ؟

ـــ لنقول : « ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ».

ـــ من علّمكما هذا الأسلوب من المتاب ؟

ـــ هو بعض ما تلقينا من فيض هدايتك الربانية.

ـــ وما الذي كان يمنع من إعلان هذا المتاب بحضور سكان الفردوس ؟

ـــ منع من ذلك الخوف من رفض هذه التوبة على مرأى ومسمع من القرود.

ـــ ولكن القرود خلقٌ من خلقي، ومن حقهم أن يشمتوا بالآثمين.

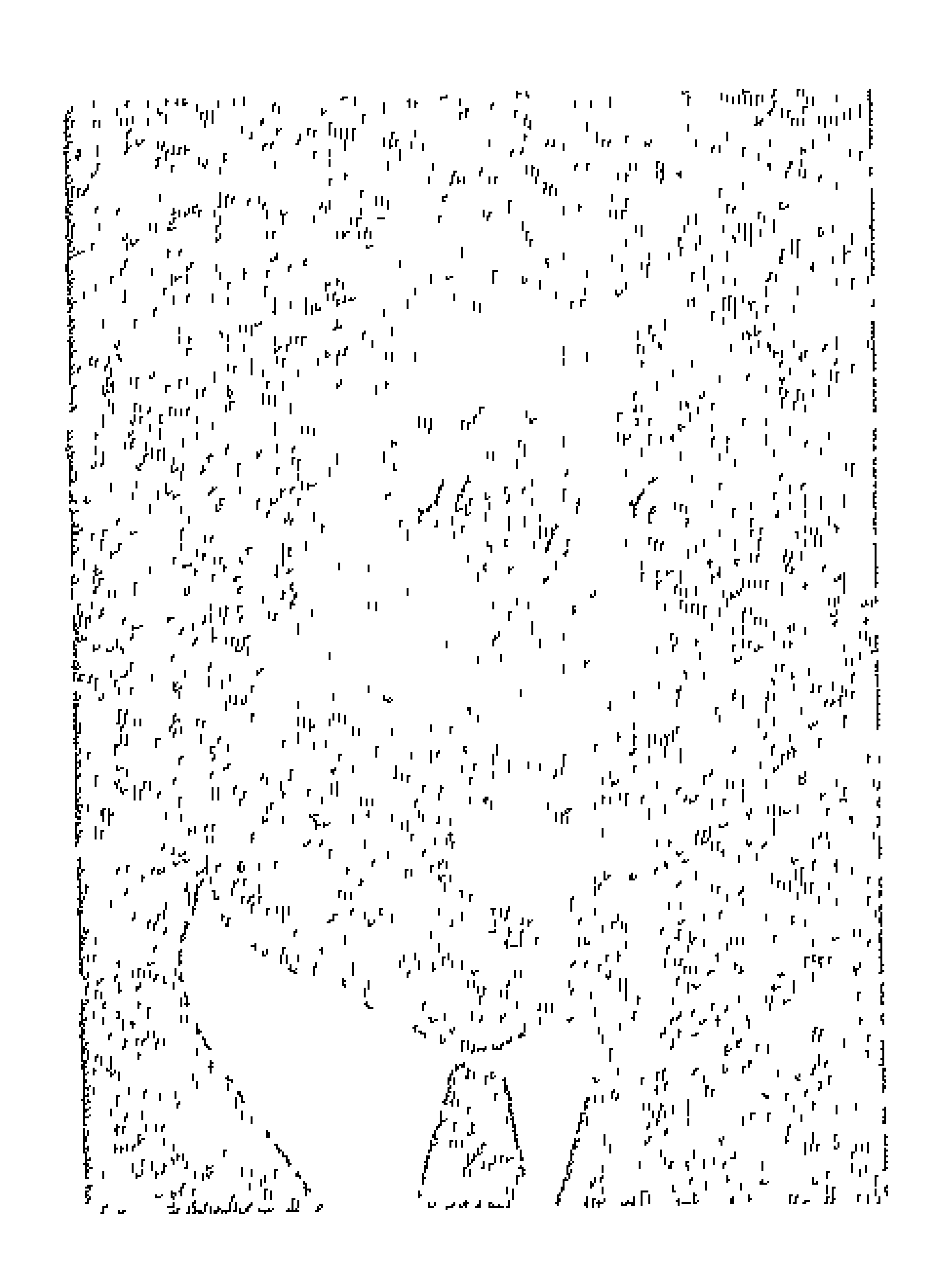
ـــ هذه بداية مرعبة، وأنا أدعو الله أن يتفضل بإمهالي يوماً أو يومين لأستعد للدفاع.

ـــ أمهلتك أسبوعاً.

وخرج آدم من الجلسة السرية وهو موقن بأن الأمل في نجاته عزيز المنال !

فما الذي سيقع بعد أسبوع ؟ وهل [illegible] آدم وهو صاحب حواء ؟
نسأل الله الصفح عن آدم، فما [illegible] فتًى وهّاج الروح والفؤاد.

الفهرس



ولد الدكتور زكي مبارك في الخامس من اغسطس سنة ١٨٩١. وقال: « ولدتني أمي في الخامس من أغسطس، فاضيف الى الوجود شر جديد وخير جديد »

ورحل زكي مبارك الى عالم البقاء في الثالث والعشرين من يناير ١٩٥٢.

وللدكتور زكي مبارك مئات المقالات لم تجمع حتى الآن من الصحف والمجلات.

وللدكتور زكي مبارك الاديب والناقد عشرات الكتب في الادب والنقد والفلسفة منها على سبيل المثال: « النثر الفني في القرن الرابع الهجري، التصوف الاسلامي، الاخلاق عند الغزالي، ليلى المريضة في العراق، عبقرية الشريف الرضي، اللغة والدين والتقاليد والمدائح النبوية ».

وللشاعر زكي مبارك عدة دواوين منها: ديوان زكي مبارك، الحان الخلود، اطياف الخيال احلام الحب وقصائد في التاريخ ».